

تأثير المدرسة الفقهية على الفكر التربوي الإسلامي.

بحث من إعداد: د أمل بنت راشد بن إبراهيم الخليفة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية التربية- قسم أصول التربية

مسار التربية الإسلامية

## ملخص البحث:

هدفت الدراسة الحالية إلى الكشف عن تأثير المدرسة الفقهية على الفكر التربوي الإسلامي، وذلك من خلال التعرف على الظروف التاريخية والعلمية المصاحبة لظهورها مع الكشف عن مكانة المدرسة الفقهية، وأهدافها ومصادرها، وأبرز مؤسساتها التعليمية، بالإضافة إلى عرض الآراء التربوية لبعض مفكري تلك المدرسة. واستخدمت الدراسة المنهج الوثائقي. وكان من نتائجها: أنه قد صاحب ظهور المدرسة الفقهية بعضاً من الظروف التاريخية والعلمية. وأن المدرسة الفقهية تمتعت بالكثير من النفوذ والانتشار، حتى عدت أهم المدارس وأوسعها في مجال التربية وأكثرها انتشاراً وتأثيراً. وأن من أهداف المدرسة الفقهية، الدفاع عن الكتاب والسنة، ونشر العقيدة الإسلامية، وإعداد القضاة ورجال الحسبة والمعلمين والعلماء. وأن هناك عدة مصادر اعتمدت عليها المدرسة الفقهية كالقرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والقياس، والاستحسان، وقول الصحابي، وعمل أهل المدينة وغيرها. وتوصلت الدراسة أيضاً إلى تنوع المؤسسات التعليمية عند الفقهاء كالمساجد، والكتاتيب، ومنازل الفقهاء، والمدارس، والحوانيت، ودور القراء والضيافة وغيرها. كما تنوعت المناهج الدراسية، فكانت هناك مناهج الكتاتيب للصبيان، ومناهج للمرحلة العليا لإعداد الفقهاء. كذلك تنوعت طرق التدريس في المدرسة الفقهية، كطريقة السماع، والحفظ، والإملاء، وطريقة الاختلاف والمصاحبة، وطريقة السؤال والجواب وغيرها. ومن النتائج أيضاً أنه قد أسهم مفكرو المدرسة الفقهية وعلمائها بالعديد من الآراء التربوية عبر القرون المختلفة كأبي حنيفة وابن سحنون والماوردي وابن تيمية وغيرهم، وسجلوا بذلك سبق على التربية الحديثة في كثير من القضايا التربوية.



## الفصل الأول:

وقد اشتمل هذا الفصل على الآتي:

### ١- المقدمة:

لقد ازدهر الفكر التربوي الإسلامي إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، ونمت مختلف العلوم فلسفة وكلاماً وأدباً وبلاغة وتفسيراً وحديثاً وفقهاً. فارتبط نمو الفكر التربوي بمدى تقدم الأمة حضارياً، فالفكر التربوي أداة الحضارة ووسيلتها لتخليدها ولضمان تناقلها عبر الأجيال (رضا، ١٩٨٢م، ص١٧).

إن الفكر التربوي الإسلامي أشبه ما يكون بالكائن الحي، فهو يتأثر بعوامل قوة الأمة وضعفها، ولذا تأثر بعدة عوامل ساهمت في تكوينه، ومن تلك العوامل: ظهور المدارس الفكرية التربوية المختلفة التي ظهرت نتيجة للتحديات في الحياة الاجتماعية والاستجابة لها وكذا في جوانب الحياة الأخرى، فقد تغيرت الحياة من حياة البساطة إلى حياة الحضر والتعقيد، ومن حياة محصورة في شبه الجزيرة العربية إلى حياة منفتحة امتدت في أجزاء واسعة من الكرة الأرضية، وهذا التوسع الجغرافي تبعه تغيرات فكرية وثقافية نظراً لدخول أجناس أخرى للإسلام. ولقد كان من أوائل هذه المدارس ظهوراً المدرسة الفقهية التي لها مكانة كبيرة في الفكر التربوي قديماً وحديثاً، وهذا لا يعني إلغاء دور المدارس التربوية الأخرى التي أثرت في الفكر التربوي الإسلامي أو التقليل من شأنها، ولا يعني تناولها بالبحث إعطاء هذه المدرسة الصفة الملائكية أو إضفاء نوع من القداسة عليها، بل أنه من الضروري دراسة الفكر التربوي الإسلامي كما تؤكد عدد من الدراسات العلمية، لأن دراسته مهم في استخلاص الحقائق التاريخية التربوية، وإبراز الجهود الناجحة التي بذلت في ذلك الميدان، والتي كانت خلف رقي الأمم والشعوب للاستفادة منها، كذلك تجنب تكرار الأخطاء التي وقعت في الماضي بعد معرفتها (حسانين، ١٤١٠هـ، ص٩) و(الحري، ١٤١٦هـ، ص٤).

## ٢- مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

لقد كان للمدرسة الفقهية تأثيراً كبيراً على الفكر التربوي الإسلامي، وذلك من خلال الدور الذي قامت به للدفاع عن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية في البلدان. وقاد الانشغال الفقهي بالتربية إلى أمرين هاميين وهما: طبيعة العلاقة بين المعلم والمتعلم التي أقامها ابن سحنون والقابسي على مبدأين وهما: العدل بين الصبيان والرفق بهم. وأما الأمر الثاني فهو النظر إلى التربية على أنها فريضة شرعية، فلقد أجمع الفقهاء على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم (رضا، ١٤١٨هـ، ص ص ١٢٦، ١٢٤).

كذلك عالجت المدرسة الفقهية قضايا تربوية أخرى، ومنها: المتعلم ماله وما عليه، والشروط الواجب توفرها في الطالب، وأجور المعلمين، وطرق التدريس والوسائل، وجميع الممارسات التعليمية التي تحصل في تلك المؤسسات المختلفة. ومن القضايا التي تناولتها هذه المدرسة بالبحث والدراسة أيضاً، والتي امتد أثرها حتى العصر الحالي، الحديث عن أهمية التعليم على يد الأستاذ إلى جانب الاعتماد على القراءة الذاتية، ولذلك حذروا من تشيخ الصحيفة، والتفقه من بطون الكتب، وأن في ذلك ضياع للأحكام، وحرص طلاب العلم على الدراسة على يد من عرف بالعلم وسعته لينهلوا من علمه. كذلك من آثار هذه المدرسة حرصها على التربية المستمرة، فلقد حرص الفقهاء على الاستزادة الدائمة من العلوم مهما علا شأنهم في العلم، لأن الفقيه يظل فقيهاً ما طلب الفقه، فإن ظن أنه قد فقه فقد جهل. ولاشك بأن الآثار التي تركتها هذه المدرسة وأصحابها كثيرة، نظراً لعظم ما تركته من تراث فكري كبير الأمر الذي يتطلب من الباحثين الاجتهاد في استنباطه وجمعه. ومن هنا جاءت فكرة الدراسة الحالية حول المدرسة الفقهية وتأثيرها على الفكر التربوي الإسلامي، والتي سعت إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية:

س١: ما الظروف التاريخية والعلمية المصاحبة لظهور المدرسة الفقهية؟

س٢: ما مكانة المدرسة الفقهية؟

س٣: ما أهداف المدرسة الفقهية؟

س٤: ما مصادر المدرسة الفقهية ومنهجها العلمي؟

س٥: ما أبرز المؤسسات التعليمية عند الفقهاء؟

س٦: ما الآراء التربوية لبعض مفكري المدرسة الفقهية؟.

### ٣- أهداف البحث:

تهدف الدراسة الحالية إلى الكشف عن تأثير المدرسة الفقهية على الفكر التربوي الإسلامي، وذلك من خلال الآتي:

١. التعرف على الظروف التاريخية والعلمية المصاحبة لظهور المدرسة الفقهية.
٢. الكشف عن مكانة المدرسة الفقهية.
٣. التوصل إلى أهداف المدرسة الفقهية.
٤. التوصل إلى مصادر المدرسة الفقهية ومنهجها العلمي.
٥. التعرف على أبرز المؤسسات التعليمية عند الفقهاء.
٦. الكشف عن الآراء التربوية لبعض مفكري المدرسة الفقهية.

### ٤- أهمية البحث:

تكمن أهمية الدراسة في النقاط الآتية:

- تستمد هذه الدراسة أهميتها من أهمية مجالها المتمثل في دراسة جانب من جوانب تاريخ التربية الإسلامي، حيث أن تاريخ التربية يمثل الجانب التربوي من حركة التاريخ، والذي يشمل الفكر التربوي الذي تقوم على أساسه النظم التعليمية، وما تحويه من مؤسسات تعليمية، ومفاهيم تربوية وغير ذلك.
- تستمد هذه الدراسة أهميتها أيضا من أهمية المدرسة الفقهية وتأثيرها على الفكر التربوي الإسلامي، فقد امتازت بمسايرتها لتطور مجتمعها، بدليل التطور في التأليف التربوي، فمن ابن سحنون إلى القابسي إلى ابن الجزار وغيرهم كثير، حيث كتبوا في جميع ما يفي بحاجات المجتمع آنذاك.
- لعل الدراسة الحالية تسهم في إثراء المكتبة العربية نظرا لقلّة الدراسات التربوية العربية التي تناولت تاريخ التربية الإسلامية.

- يمكن أن توفر هذه الدراسة خلفية نظرية للمعنيين بمعالجة المشكلات التربوية والتعليمية الموجودة في الميدان التربوي.

#### ٥-الدراسات السابقة:

أجرت هويدا أحمد (٢٠١٥م) دراسة بعنوان: التيار النقلي للفكر التربوي الإسلامي: دراسة تحليلية تربوية مقارنة لآثار ابن سحنون والقابسي التربوية. وهدفت الدراسة إلى التعرف على التيار النقلي مع تحديد الجذور المعرفية للفكر التربوي الإسلامي، والكشف عن مدى تأثير هذا الفكر بآراء ابن سحنون والقابسي. وتوصلت الدراسة إلى أن الغاية من التعلم والتعليم عند النقليين هي غاية دينية وهي رضا الله. وأن الفرضيات التي بُني عليها الفكر التربوي الإسلامي تتعلق بالنظرة إلى الواقع والمجتمع. وأن هناك سبق للآراء التربوية للفقهاء ابن سحنون والقابسي على التربية الحديثة في معالجة بعض الموضوعات. وأجرى الهمادي (٢٠١٣م) دراسة بعنوان: منهج الفكر التربوي الإسلامي: تأصيلا لمدرسة الفقه والحديث في القيروان. وهدفت الدراسة إلى الكشف عن المنهج الفكري التربوي في القيروان طبيعته وأهدافه، وتأثيره في تأصيل مدرسة القيروان في الفقه والحديث. واهتمام هذه المدرسة بعلوم الفقه مما أكسبها شهرة فقهية في بلدان المغرب والأندلس. وتوصلت الدراسة إلى أن المنهج التربوي الإسلامي ركز على ضرورة ترسيخ الدين وتقرير أركانه، وإشاعة لغته. وأن المنهج التربوي قد هدف إلى تكوين المجتمع المسلم السني في عقيدته وسلوكه. وأن أهل القيروان اهتموا بالتعليم وأساليب التربية الإسلامية وأماكن التعليم المتنوعة. وأن دور علماء القيروان كان بالغ الأهمية في ترسيخ المنهج التربوي وتعميمه وتكوين شخصيته المتميزة عبر ما تركوه من إنتاج علمي وحضاري كبير. وأجرى الإبراهيم (١٩٨٩م) دراسة حول الحركة الفقهية في بلاد الشام في العصر الأموي ونزعتها الاجتهادية، وقد هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن الحركة الفقهية في بلاد الشام من خلال رصد تطور مدلول كلمة الفقه مع بيان أوجه النشاط الفقهي في بلاد الشام. ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة: أن الحركة الفقهية في بلاد الشام تميزت بوجود الأفراد المبدعين من الفقهاء، وتشجيع الخلفاء للعلم والعلماء، وشيوع ظاهرة التنقل والرحلة في

طلب العلم، وظاهرة تدوين الفقه، وكثرة اللقاءات والمناقشات بين الفقهاء وتنوع المؤسسات التعليمية.

٦- منهج البحث: المنهج الوصفي الوثائقي، ويقصد به: الجمع المتأنى الدقيق للسجلات والوثائق المتوافرة ذات العلاقة بموضوع مشكلة البحث، ومن ثم التحليل الشامل لمحتوياتها بهدف استنتاج ما يتصل بمشكلة البحث من أدلة وبراهين تبرهن على إجابة أسئلة البحث (العساف، ١٤٢١هـ، ص ٢٠٦).

#### ٧- مصادر البحث:

جمعت الباحثة ما يتعلق بالمدرسة الفقهية من مصادر متعلقة بمشكلة البحث، كذلك اطلعت على مؤلفات بعض مفكري هذه المدرسة كأبي حنيفة في كتابه العالم والمتعلم، والماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين، وذلك لأجل الإجابة على أسئلة البحث بشكل علمي. ثم تمت عملية نقد تلك المصادر للتأكد من صحة المعلومات المنقول عنها. ثم تحليل المعلومات عن طريق الاستنباط؛ وذلك باستخراج الأدلة التي تبرهن على الإجابة العلمية لكل سؤال من أسئلة البحث. ولقد قامت الباحثة بتقسيم البحث إلى ثلاثة فصول وعدة مباحث، بالإضافة إلى خاتمة وهذه الفصول والمباحث هي كالآتي:

الفصل الأول ويشمل: المقدمة، ومشكلة البحث وتساؤلاته، وأهدافه، وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهج البحث ومصادره. والفصل الثاني وتناول: الظروف التاريخية والعلمية المصاحبة لظهور المدرسة الفقهية، ويشمل مبحثين هما: المبحث الأول: تعريف الفقه، والمبحث الثاني: عصور الفقه الإسلامي ومراحلها. أما الفصل الثالث فكان بعنوان: تأثير المدرسة الفقهية على الفكر التربوي الإسلامي، ويشمل خمسة مباحث وهي: المبحث الأول: مكانة المدرسة الفقهية، والمبحث الثاني: أهداف المدرسة الفقهية، والمبحث الثالث: مصادر المدرسة الفقهية ومنهجها العلمي، والمبحث الرابع: أبرز المؤسسات التعليمية عند الفقهاء، والمبحث الخامس: الآراء التربوية لبعض مفكري المدرسة الفقهية ولقد اختارت الباحثة منهم: الإمام أبو حنيفة وابن سحنون والماوردي وابن تيمية كممثلين للمذاهب الفقهية الأربعة.

## الفصل الثاني: الظروف التاريخية والعلمية المصاحبة لظهور المدرسة الفقهية: المبحث الأول: تعريف الفقه.

يعرف الفقه لغة: بأنه العلم بالشيء والفهم له، يقال: فقه الرجل فقاهاة إذا صار فقيهاً، وفقه: أي فهم فهماً، وقد غلب الفقه على علم الدين، لذلك اصطلح العلماء على أن الفقه هو العلم بأحكام الشريعة، والفقه في الأصل الفهم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة: ١٢٢، أي ليكونوا علماء به (ابن منظور، ١٤١٢ هـ، ص ٣٠٥).  
أن المعاني اللغوية تركز على أن الفقه هو الفهم مطلقاً، فهو ما يدل على إدراك الشيء، والعلم به، والفهم له، والعلم بغرض المخاطب من خطابه (أبو الحاج، ٢٠٠٤م، ص ١١٠).

أما المعنى الاصطلاحي للفقه: فهناك عدة تعريفات، إلا أنه من أشهر هذه التعريفات، هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، والأحكام الشرعية العملية هي التي تتعلق بأفعال المكلفين من العبادات والمعاملات، وهي الفرض والواجب والسنة والحرام والمكروه والمباح. وأما الأدلة التفصيلية فهي الأدلة الجزئية التي يتعلق كل دليل منها بمسألة معينة و ينص على حكم خاص بها (بدران، د - ت، ص ٢٤).

### المبحث الثاني: عصور الفقه الإسلامي ومراحل:

لقد مر الفقه بعدة مراحل ذكرها العلماء مع اختلاف في التقسيمات، وليس هذا المقام مناسب لذكرها، ولكن يمكن ذكر ما كادت أن تتفق عليه أغلب الكتابات وهذه المراحل هي:

**الدور الأول:** التشريع في العهد النبوي، فمنذ أن بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القدوة للمؤمنين، فكان يتوضأ فيرى أصحابه وضوئه، فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن، وهذا أدب، وكان مصدر الأحكام الوحي، وإن كان هناك اجتهادات من الرسول صلى الله عليه وسلم قد يأتي الوحي فيقره عليه أو يعدله، ودليل ذلك أنه في قوله

تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ﴾ التوبة: ٤٣، فقد عوتب الرسول صلى الله عليه وسلم على الإذن، لما ظهر نفاقهم في التخلف عن غزوة تبوك ولا يكون العتاب فيما صدر عن وحي (أبو الحاج، ٢٠٠٤ م، ص ٣٧). كذلك فقد يجتهد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن يكون الصحابي بعيداً عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما في توجيههم لبني قريظة (الأشقر، ١٤٠٢ هـ، ص ص ٦١ - ٦٢).

**الدور الثاني:** الفقه في عصر الخلفاء الراشدين، بدأ هذا العصر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتولي أبو بكر رضي الله عنه للخلافة، واستمر مدة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وفي هذا العصر اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ودخل في الإسلام أمم مختلفة، ونجم عن ذلك وجود بعض الوقائع التي احتاجت إلى تشريع إسلامي، فبحثوا في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وكانوا إن لم يجدوا اجتهدوا. ولقد امتاز الفقه في هذا العصر بعدة أمور منها: أنه تم جمع القرآن وتوحيد المصحف. ولم يتم تدوين السنة في هذا العصر التدوين المعروف، وتشدد الخلفاء في قبول رواية الحديث مما أدى إلى خلوها من الأحاديث المكذوبة، كما ظهر في هذا العصر مصدر جديد للفقه، وهو الإجماع. ولقد كان الفقه واقعياً قائماً على ما يظهر في الواقع، ولم يفرض الصحابة المسائل قبل وقوعها. كذلك امتاز الفقه بعدم تدوين الصحابة له بل حفظ في الصدور (السريتي، ١٩٩٣ م، ص ٧٨).

**الدور الثالث:** الفقه في عصر التابعين، وبدأ هذا العصر بتقلد معاوية بن أبي سفيان مقاليد الحكم عقب وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ويمكن القول بأن نشاط الفقهاء في عصر التابعين امتاز بما يلي:

١. دب الخلاف بين المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقامت الحرب بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان، مما تسبب في انقسام المسلمين إلى معتدلين وشيعة وخوارج، وبالتالي لكل منهم منهجه الفقهي.

٢. استقلال علم الفقه فأصبح له رجال، وذلك نتيجة للفجوة بين الأمويين والفقهاء، بسبب ما حصل من مخالقات لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٣. أصبحت مصادر الفقه في هذا العصر القرآن الكريم والسنة النبوية والرأي والإجماع.
٤. كثرة رواية الحديث مما أدى إلى ظهور الوضاعين، ومقاومة العلماء لذلك الخطر مما أدى لظهور علم الجرح والتعديل.
٥. نشأت المدارس الفقهية الكثيرة في البلاد الإسلامية، نتيجة تفرق العلماء في الأمصار وأهمها: مدرسة الحديث بالحجاز و مدرسة الرأي بالعراق وغيرها كثير. وكانت تلك المدارس الفقهية هي الحلقة المفقودة التي تربط بين عصرين متمايزين: عصر النبوة وعصر المذاهب الفقهية. وهذه المدارس الفقهية إنما تكونت تبعاً لشخصيات التابعين، الذين أخذوا عن الصحابة، فجمعوا أبواب الفقه، وآراء الصحابة وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم مما سمعوه من سلفهم، وضموا إليه اجتهاداتهم، وبالتالي بدأت تتكون هذه المدارس وبدأت عجلة الفقه تدور في دورتها المذهبية الأولى للبلدان ولآثار الصحابة ومذاهبهم، وهذه المدارس هي (الفرفور، ١٤١٦ هـ، ص ص ٣٣-٣٨) و(الشرياصي، ١٤٠٣ هـ، ص ص ٧٤-٧٨):

أ- مدرسة المدينة أو مدرسة الحديث: والأصل فيها يرجع إلى بعض الصحابة الفقهاء، كزيد بن ثابت وعائشة رضي الله عنهما وعبد الله بن عباس وابن عمر رضي الله عنهما، ثم جاء بعدهم التابعين ممن يسمون بالفقهاء السبعة وهم: ابن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار وخارجه بن زيد بن ثابت، فهم الذين مثلوا المدرسة الفقهية في المدينة. ولقد كان لهذه المدرسة طابع فقهي تتميز به ويتجلى ذلك في وقوف أصحاب هذه المدرسة عند النصوص، دون أن يلجأوا إلى الرأي، إلا في حالة الضرورة القصوى، وذلك بسبب كثرة ما بيدهم من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم،

وآثار الصحابة، بحكم أن المدينة موطن الحديث، ومجمع الفقهاء، فقام إمام هذه المدرسة وهو سعيد ابن المسيب وأصحابه بجمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أثر عن الصحابة كفتاوى أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت وأبي هريرة رضوان الله عليهم أجمعين، ورأوا أن ذلك يغنيهم عن الرأي، كذلك فإن قلة ما يعرض لهم من حوادث أسهم في عدم لجوئهم إلى الرأي.

أما عن الأثر العلمي لهذه المدرسة فيمكن إجماله بالآتي:

١. الحفاظ على تراث الأمة الخالد، الذي اعتمد عليه الفقهاء في كل عصر، فلقد

اهتموا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعوها وطبقوها على واقع حياتهم.

٢. الحفاظ على أقوال الصحابة، فقد بحثوا عنها، وكانوا رواة ثقة لها.

٣. وضع المنهج العلمي للفقهاء الإسلامي، الذي سار عليه الفقهاء، وكان الأساس

الذي على أساسه بنيت المذاهب الفقهية فيما بعد.

٤. ارتحل الفقهاء من سائر الأمصار إلى هذه المدرسة، كعطاء بن أبي رباح وابن

شهاب الزهري وغيرهم.

ب- مدرسة الكوفة أو مدرسة الرأي: يرجع الأصل في مذهب هذه المدرسة إلى الفقهاء من

الصحابة الذين نزلوا في الكوفة، ومنهم: عبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وأبو

موسى الأشعري، وحذيفة بن اليمان وأنس بن مالك وغيرهم رضوان الله عليهم. كذلك كان

لعمربن الخطاب رضي الله عنه تأثيراً في هذه المدرسة، فقد كان يتوسع في استعمال

الرأي أكثر من غيره، ويعد عمر وعلي وعبد الله بن مسعود رضوان الله عليهم أجمعين

الأكثر تأثيراً في هذه المدرسة. أما عن طريقة فقهاء هذه المدرسة، فكانت تقوم على

أساس أن أحكام الشرع معقولة المعنى، وأنها مشتملة على مصالح تعود على العباد،

ومادامت الأحكام الشرعية لها علل من أجلها شرعت الأحكام وتترتب عليها مصلحة

الخلق، فلا بد من البحث عنها، ولذا ربما ردوا بعض الأحاديث لمخالفتها العلل لاسيما إن

وجدوا لها معارضاً. كذلك فأنهم تشددوا في قبول الأحاديث المروية عن رسول الله، فقدموا

القياس على أخبار الآحاد، وذلك لكثرة الوضع في العراق. أما الأثر العلمي لهذه

المدرسة: بلا شك أن لهذه المدرسة دور كبير في نهضة الفقه الإسلامي. ومن أبرز الأعمال التي قامت بها المدرسة الآتي:

١. المحافظة على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، التي رويت لهم عن طريق الصحابة الذين نزلوا بالعراق.

٢. جمع فتاوى بعض الصحابة، كذلك فقد نما الفقه على أيدي هؤلاء الفقهاء، الذين طرقوا كل باب من أبواب الفقه، وابتكروا الفقه الافتراضي (أرأيت لو كان كذا).

٣. إن طريقتهم كانت لها أثراً كبيراً في اكتساب الفقه المرونة، فالحوادث والحاجات متجددة.

**الدور الرابع:** دور التدوين ودور الأئمة المجتهدين أو عصر تكوين المذاهب. ولقد بدأ هذا الدور قبل سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وبعد ذلك حتى منتصف القرن الرابع الهجري، وامتاز هذا العصر بعدة مميزات جعلته أزهى عصور الفقه الإسلامي على الإطلاق ومنها: أن الفقه الإسلامي نهض فيه نهضة كبرى، حتى وصل إلى درجة قريبة من الكمال، نظراً لدقته وعمقه وشموله. كذلك ظهرت المذاهب الجماعية في هذا العصر على أيدي الفقهاء العظام، بدءاً بأبي حنيفة وانتهاءً بأحمد. وترجمت العديد من الكتب العلمية في علوم مختلفة من اللغات الأجنبية للعربية، مما أثر على الحركة الفكرية، وابتدأ بتصنيف الفقه في هذا العصر مختلطاً بالحديث وما أثر عن الصحابة والتابعين. (السريتي، ١٩٩٣م، ص ص ١٠٥-١١٧).

ولقد كانت بعض المذاهب موجودة ثم غلب عليها ما ورد عليها من المذاهب الأخرى وهي: مذهب الإمام الاوزاعي، ومذهب الإمام داود الظاهري، ومذهب الإمام محمد الطبري ومذهب الإمام الليث بن سعد (الفرفور، ١٤١٦هـ، ص ١١٨).

ولقد جاء بعد هذا العصر المزدهر عصر تقليد المذاهب، فالفقهاء لم يأتوا بمذاهب جديدة إنما توقفوا على المذاهب الفقهية الأربعة. ولقد ساد الغلو والتعصب للمذاهب في العصور التالية لعصر المذاهب الأربعة، واتجه العلماء إلى عمل المختصرات والشروح لكتب الأئمة، ليس لإحقاق الحق، بل نصرة لأحد المذاهب (الأشقر، ١٤٠٢هـ، ص ١٥٠).

وفيما يلي عرض لأصحاب هذه المذاهب الفقهية الأربعة وهم:

### ١- مذهب الإمام أبو حنيفة (٨٠-١٥٠هـ):

ولد أبو حنيفة بالكوفة سنة (٨٠هـ). وتوفي سنة (١٥٠هـ)، وهو النعمان بن ثابت بن زوطي الفارسي، نشأ بالكوفة في العراق التي كانت في ذلك الوقت مزيجاً من أجناس مختلفة، وكان فيه اضطراب وفتن، وفيه آراء تتضارب في السياسة وأصول العقائد، ففيه الشيعة والمعتزلة، وفيه تابعون مجتهدون، حملوا علم من لقوا من الصحابة، ولعل هذا من العوامل التي أثرت في فكر أبي حنيفة، حيث أنه تأثر بذلك التنوع، ولذا ابتدأ في بواكير صباه يجادل مع المجادلين، ويعارض أصحاب الأهواء (أبو زهرة، د- ت، ص ٢٢).

ولقد تتقف أبو حنيفة بكل الثقافة الإسلامية، التي كانت في عصره، فحفظ القرآن الكريم، وعرف قدرًا من الحديث والنحو والأدب والشعر، وجادل الفرق المختلفة. ثم انصرف إلى الفقه، حتى أصبح له شأنًا عظيمًا، وكان من شيوخه حماد بن أبي سليمان الذي لازمه حتى موته. وإن كان أبو حنيفة قد فكر في الاستقلال عن شيخه، إلا أنه لم تطاوعه نفسه على فعل ذلك حتى جاء أحد الأيام وكان شيخه قد سافر للبصرة فأمره أن يجلس مكانه ففعل أبو حنيفة حتى وردت عليه عدة مسائل وكانت نحواً من ستين مسألة فكان يجيب ويكتب ما أجابه حتى قدم شيخه فعرضها عليه فوافق في أربعين وخالفه في عشرين، فألى على نفسه ألا يفارقه حتى موته (الخطيب البغدادي، ٩٣١م، ص ٣٣٣).

كذلك فإن أبو حنيفة، قد تنقل في طلب العلم إلى مكة والمدينة، والتقى بالكثير من التابعين يذاكرهم الفقه والحديث. ولقد عاش أبو حنيفة في عهد الدولة الأموية. وامتد به الأجل إلى أن أصبحت الدعوة لبني العباس، وازدهارها واتساع رقعتها وتباعد أقاليمها، مما جعل الحاجة شديدة لجهود الفقهاء في استنباط الأحكام لسد حاجات البلاد والعباد، فازدهر العلم وبدأ التدوين وظهرت حركة الترجمة، وازدهر الفقه في عصر أبي حنيفة. ولقد عُرف أبو حنيفة بكثرة اجتهاده وأخذه بالقياس. ولقد ذكرت كتب المناقب الكثيرة من أخلاق أبو حنيفة الحميدة وما كان عليه من ورع وزهد بعطايا الخلفاء، وفضيلة ونكاه، ومواساة لإخوانه وخصوصاً طلابه (القطان، ١٤٢٢هـ، ص ٣٢٥، ٣٢٩-٣٣٠).

أما عن أثره الفقهي وانتشار مذهبه، فلم يكن لأبي حنيفة كتاباً في الفقه من تأليفه، إذ لم يشع في ذلك العصر التدوين إلا بعد وفاته، وما ذكر من كتب منسوبة إليه هي في غير الفقه، كرسالة العالم والمتعلم وكتاب الرد على القدرية . إلا أنه مع ذلك كان تلاميذه يدونون آرائه و يقيّدونها وربما كان ذلك بإملائه، ومن أشهرهم: أبو يوسف وهو يعقوب بن إبراهيم، وزفر بن الهذيل ومحمد بن الحسن الشيباني الذي وضع ستة كتب جمع فيها أقوال أبو حنيفة وأبو يوسف وهي: المبسوط والزيادات والجامع الكبير والجامع الصغير والسير الكبير والصغير، كذلك من تلاميذه الحسن بن زياد اللؤلؤي وغيرهم كثير (أبو زهرة، د-ت، ص ص ٢٢٠-٢٤٧).

أما عن انتشار هذا المذهب: فقد نشأ في الكوفة ثم شاع بعد ذلك في مصر والشام وبلاد الروم والعراق، ثم اجتاز الحدود فكان في الصين والهند، حيث لا مزاحم له حتى العصر الحاضر، ولقد أسهم تولي أبو يوسف منصب قاضي القضاة في الدولة الإسلامية في انتشار هذا المذهب، إذ كان لا يولى قاضي على امتداد الدولة الإسلامية إلا بأمره، فانتشرت آراء فقهاء العراق عند العامة إلا في بلاد الأندلس التي انتشر فيها المذهب المالكي. ويشكل أتباع هذا المذهب اليوم أكثر من ثلث المسلمين في العالم (بدران، د-ت، ص ١٢٩).

## ٢- مذهب الإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ):

ولد مالك في سنة (٩٣هـ) بالمدينة المنورة. وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، نشأ في بيت علم، فحفظ القرآن الكريم ثم اتجه إلى حفظ الحديث وجالس العلماء وهو صغير، وكان من بين هؤلاء العلماء عبد الرحمن بن هرمز ثم وجد في نافع مولى ابن عمر بغيته فلازمه وغيرهما كثير. ولما اكتملت لمالك دراسة الحديث والأثر والفقه، اتخذ له مجلساً في المسجد النبوي للدرس والإفتاء، ولقد عني مالك بمذاكرة المسائل الفقهية مع غيره من الفقهاء في مجلس يعقد لذلك، مما أسهم في تلاقي المدارس الفقهية (القطان، ١٤٢٢هـ، ص ص ٣٤٥-٣٤٦).

أما عن عصره، فقد عاش مالك في المدينة، مهد السنن وموطن الفتاوى المأثورة، مدينة الرعييل الأول من علماء الصحابة ثم تلاميذهم من بعدهم، وهذا لاشك أثر في تمسكه بالحديث والأثر، وإن لم ينف عنه الأخذ بالرأي، كذلك فإن عصره يشبه عصر أبي حنيفة فهو قد أدرك الدولة الأموية وتوفي في عهد الرشيد العباسي، ورأى خروج الخوارج وفهمهم لظواهر الألفاظ فقط، ورأى مغالبة أبي جعفر المنصور لأبناء علي بن أبي طالب وانتصاره عليهم، ثم رأى عصر الاستقرار والحضارة في عهد الرشيد، وامتزاج الحضارات المختلفة إثر حركة الترجمة. ولقد كثرة المنازعات الفكرية حول عقائد متباينة في ذلك العصر، ألا أن مالك لم يتأثر بها مباشرة كأبي حنيفة الذي عاش في موطنها، فلقد عاشت المدينة في منأى عن هذه المنازعات وراج فيها علم الكتاب والسنة. ويلاحظ أن مالك قد استطاع في جو المدينة الهادئ، أن يصون نفسه عن موجة أهل الأهواء العارمة التي كادت تشغل المسلمين عن حقيقة الدين، كالشيعة والخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة وغيرهم كثير، وهو لم يحبذ الخروج على الحكام الأمويين أو العباسيين، لأن في ذلك فتنة بين المسلمين وأن لم يرض بالطريقة (أبو زهرة، د-ت، ص ص ١٤١ - ١٨٨) و (القطان، ١٤٢٢هـ، ص ص ٣٤٣-٣٤٥) و (الفرفور، ١٤١٦هـ، ص ص ١٠٨-١١٠).

أما عن أخلاقه، فقد أتى الله مالكا من الصفات والمواهب ما جعل منه محدثاً و فقيهاً، فاشتهر بالحفظ وشدة الوعي والإخلاص، كذلك أنه اتصف بالصبر والجلد والمثابرة، فقد كان يذهب في الهجير إلى بيوت العلماء، ينتظر خروجهم، ويتبعهم حتى المسجد، وكان يقف عند باب شيخه في شدة البرد، ويتقي البرد بوسادة يجلس عليها. كذلك اتصف بالمهابة فقد هابه تلاميذه والخلفاء وأبناءهم، حتى إذا دخل مجالس الخلفاء تتحى الناس عنه وأفسح له حتى الخليفة الجالس على كرسيه، فقد امتاز بنفاذ البصيرة وضبط الأمور وقلة الكلام والابتعاد عن الرياء (أبو زهرة، د-ت، ص ص ٩١، ١٠٢).

أما عن أثره الفقهي وانتشار مذهبه: فلقد كان لمالك في كتابه الموطأ السبق في التدوين والتأليف الحق. إذ كان الناس في العصر الذي قبله يعتمدون على الذاكرة أكثر مما يعتمدون على الكتاب، وإن كانت هناك بعض المجموعات مثل: أحاديث عمر بن

الخطاب رضي الله وأحاديث عائشة رضي الله عنه وغيرهم، علماً بأن الاتجاه إلى التدوين كان موجود في عهد عمر بن عبد العزيز، حين خشي ذهاب العلم بموت العلماء لكنه توفي قبل تمامه. هذا بالنسبة لما صح أنه من كتب مالك، وإلا فهناك عدة رسائل وكتب نسبت إلى مالك، والراجح أن تلاميذه هم من كتبها، فقد جمعوا أقوال شيخهم ودونها في كتب ورسائل عديدة. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن تلاميذ الإمام هم المصدر الثاني لفقهه، وأنه لم يُعرف إمام مثله بكثرة تلاميذه. ومن أشهر تلاميذه عبد الله بن وهب، وعبد الرحمن القاسم، وأسد بن الفرات بن سنان وغيرهم كثير. ولقد انتشر المذهب في بلاد الأندلس والمغرب، وفترة في مصر والحجاز، واتصل المذهب المالكي بحياة الناس، واجتهد فقهاء هذا المذهب بعد وفاة الإمام مالك، فكان مذهباً يسد حاجة الناس وساعد الاجتهاد على تنميته وانتشاره (أبو زهرة، د-ت، ص ص ٢٢٢، ٢٤٥، ٤٧٧).

### ٣- مذهب الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ):

ولد الشافعي سنة (١٥٠ هـ). وهو محمد بن إدريس الشافعي. نشأ يتيماً فقيراً، فظهر نبوغه منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم واتجه إلى حفظ الأحاديث النبوية بالاستماع والكتابة والحفظ، وحرص على فصاحته في العربية، فأقام بالبادية ولازم هذيلاً (وحدة البحث العلمي، ١٤٣٦هـ، ص ص ١٢١-١٢٢).

لقد بدأ الشافعي بطلب العلم على يد الفقهاء والمحدثين في مكة، ثم تطلعت نفسه إلى الإمام مالك فلازمه، وهذه الملازمة لم تمنعه من السفر والقيام برحلات علمية في البلاد الإسلامية. وبعد وفاة مالك نزل الشافعي بغداد، وأخذ الفقه عن محمد بن الحسن، فاجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق. ثم عاد الشافعي من العراق إلى مكة، فأخذ يلقي دروسه في الحرم المكي، والتقى بالعديد من العلماء في موسم الحج، كما التقى أحمد بن حنبل. وبعد ما اجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق، وتشعب الآراء، واختلاف الأفكار، رأى أنه لا بد من وضع مقاييس ثابتة ومعايير صحيحة يعرف بها الحق من الباطل، فعكف يدرس الكتاب الكريم يتعرف على دلالاته، وعلى السنة يتعرف على طرق الاستدلال بها، وما هي ضوابط الاجتهاد لاستخراج الأحكام إذا لم يكن كتاب ولاسنه، وعندما انتهى من وضع

أصول الاستنباط رجع إلى بغداد يعرضها على الفقهاء، فقد كان للشافعي الفضل في وضع موازين القياس ومحاولة ضبط طرق فهم النصوص بما وضعه من مبادئ الاستنباط. وبعد ذلك انتقل إلى مصر حتى وفاته، وفيها أخذ يعيد النظر بآرائه السابقة في ظل ما يتطلبه البلد من عرف وحضارة، فرجع عن بعض آرائه القديمة. ولقد عاش الشافعي في عصر استقرار الدولة العباسية، وتمكين سلطانها، وازدهار الحياة الإسلامية فيها، حيث كانت المدن الإسلامية تموج بنشاط العلماء واقتباسهم من الفلسفة اليونانية وآداب الفرس وعلوم الهند (أبو زهرة، ١٩٧٨م، ص ص ١٩-٢٠، ٥١).

كذلك فقد ساد في عصره كثرة المناظرات الفقهية بين العلماء في مسائل الخلاف، وهذا أثر عليه في وضع أصول الفقه الذي خرج به بالمبادئ الأصولية التي تلقاها الأمة بالقبول والعمل إلى العصر الحاضر.

أما عن صفاته، فقد كان الإمام الشافعي عميق الفقه، قوي القريحة، عميق التفكير، ذكي البحث والمناظرة والاستدلال، كل هذه الصفات وغيرها كثير أسهمت في نبوغه وتفوقه في زمانه (وحدة البحث العلمي، ١٤٣٦هـ، ص ص ١١٩-١٢٠).

أما عن أثره الفقهي وانتشار مذهبه، ففي مصر اطلع مالك على بعض آثار التابعين، ودرس آرائه السابقة كلها في ضوء ما هدته إليه التجربة والنضج الذي وصل إليه، والبلد الذي نزل إليه، فكتب رسالته في الأصول كتابية جديدة زاد فيها وحذف منها، وقد يتردد بين القديم والجديد فيذكرهما وهكذا، وهذا هو دور التمحيص الذي لا بد أن يمر به العالم المخلص بعد مرور فترة من الزمن. ولقد كان هناك مصدرين لنقل فقه الشافعي أحدهما عن طريق تلاميذه، ومن أبرزهم أبو بكر الحميدي وابن أبي الجارود والزعفراني وغيرهم، والآخر عن طريق كتبه التي كتبها أو أملاها بعض تلاميذه. ومن هذه الكتب الرسالة وكتاب الأم، وكتاب السنن وغيرهما من الكتب (أبو زهرة، ١٩٧٨م، ص ص ١٤٩-١٥٥).

ولقد انتشر المذهب الشافعي في مصر، واستمر الحال حتى جاءت الدولة الفاطمية التي أبطلت العمل به، وعملت بالمذهب الشيعي، وبمجيء الدولة الأيوبية أحييت كل المذاهب

المعروفة، وجعل للشافعي الحظ الأكبر من العناية. وانتشر مذهبه في الشام أيضا على يد أبي زرعه، كذلك كان له انتشار في العراق إلى جانب المذهب الحنفي، وكذلك في خراسان وبلاد ما وراء النهر (أبو زهرة، ١٩٧٨م، ص ص ٣٩٤-٣٩٥).

#### ٤- مذهب الإمام أحمد (١٦٤ - ٢٤١هـ):

ولد أحمد سنة (١٦٤هـ)، وتوفي سنة (٢٤١هـ). وهو أحمد بن محمد بن حنبل. نشأت أسرته بالبصرة ثم انتقلت لبغداد، مات أبوه وهو طفل فقامت على تربيته أمه. نشأ أحمد في بغداد حاضرة العالم الإسلامي، وكانت تموج بأنواع العلوم والفنون. وقد اختارت له أسرته التوجه لخدمة الدين، فحفظ القرآن، وتزود من علوم العربية. وقد وجد أمامه في بغداد منهجين لطلب الشريعة أحدهما: منهج الفقه والآخر منهج الحديث، فاختار منهج الفقه، وأخذ عن القاضي أبو يوسف - صاحب أبو حنيفة - ثم مال إلى طريق المحدثين بعد ذلك. وقد أخذ الحديث عن علماء الأمصار كلها في العراق والشام والحجاز واليمن ويدل على ذلك مسنده (أبو زهرة، دت، ص ٦٥).

أما عن عصره، فقد كانت حياته في عصر استقرت فيه الأمور للدولة العباسية، ألا أن بوادر الخلافات بين العباسيين أنفسهم ألفت بظلمها على ذلك العصر، وقد أدرك أحمد هذا، وانصرف للعلم إلا أنه في عهد المأمون ظهر نفوذ المعتزلة، حتى أن المأمون ومن وليه من الحكام أرادوا حمل العلماء على آراء المعتزلة مما أدى إلى وقوع الخصومة بينهم، واشتد في هذا العصر الجدل بين الفقهاء و علماء الكلام من معتزلة وجهمية ومرجئة. ولقد نضج الفقه في ذلك العصر. واستقامت طرائقه، والتقى العلماء وتدارسوا الفقه، فلم يكن الفقه بصرياً أو حجازياً أو شامياً بل صار كله إسلامياً. ودونت في ذلك العصر المجموعات الفقهية لكل طائفة من المجتهدين، فدون مالك موطأه، ودون تلاميذه من بعده الفقه المالكي، ودون أبو يوسف كتباً حاوية بعض فقهه ثم دون الشافعي كتبه ثم جاء أحمد فوجد تلك الثروة الفقهية العظيمة فاستفاد منها في تغذية عقله وفكره (التركي، ١٤٢٣هـ، ص ص ٢٥، ٣١-٣٢).

أما عن صفاته: فقد اتصف بالحفظ والوعي القوي. كذلك امتاز بالصبر والجلد وقوة الاحتمال التي أساسها قوة الإرادة وصدق العزيمة، وهي التي جعلته يحتمل ما يحتمل في طلب العلم، يجوب الأقطار راكباً أن أسعفته الحال، وماشياً أن ضاقت النفقة، وقد عرف عنه شدة فقره وزهده بعطايا الولاية. وكان يتمتع بقوة الجنب والثبات. ومن صفاته أيضاً تواضعه لعامة الناس حتى جلس الفقراء في مجلسه إلى جانب العديد من الصفات التي حملتها كتب المناقب (أبو زهرة، د-ت، ص ص ٩٠-١٠٤).

أما عن أثره الفقهي وانتشار مذهبه: فقد خلف أحمد ورائه كتابه المسند، الذي جمع فيه ما رواه من أحاديث دونها بأسانيدھا التي جمعھا من الثقات. وكتابه الناسخ والمنسوخ وكتابه التاريخ، إلا أنه لم يصنف كتاباً في الفقه، وإن كتب بعض الكتابات في موضوعات فقهية (أبو زهرة، د-ت، ص ١٩٤).

ولقد قام تلاميذه بنقل فقهه ومن أبرزهم: أبو بكر الاثرم، وأبو داود السجستاني، وإبراهيم ابن هاني وأبو بكر الخلال الذي اهتم بجمع علم الإمام وصنف كتاب الجامع. وكذلك من تلاميذه صالح وعبد الله ابني الإمام أحمد وغيرهم كثير (القطان، ١٤٢٢هـ، ص ص ٣٩٢-٣٩٣).

وانتشر هذا المذهب في بداية الأمر في العراق وبعض بلاد ما وراء النهر، وكانت له في بعض الأوقات غلبة، إلا أنها ما لبثت أن ضعفت، ودخل مصر ألا أن ملوك الدولة الأيوبية كانوا شديدي التعصب للشافعية. وقد انتشر هذا المذهب في الوقت الحاضر ببلاد نجد والحجاز بتولي الملك عبد العزيز آل سعود الذي جعله المذهب الذي يطبق في كل أفضية مملكته فلم يكن لمذهب من المذاهب الأخرى كحظوته.

### أثر المذاهب الفقهية في الفكر الإسلامي:

١. يظهر هذا الأثر في استخدام أصحاب المذاهب وتلاميذهم المنهج العلمي في الدقة والتحري في نقل الأحاديث ونسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم، وتحمل المشاق في سبيل ذلك، كذلك الدقة في تدوين فقه الأئمة الأربعة ابتداءً من الشيباني صاحب أبو حنيفة المعروف بشدة تحريه و فقهه وحفظه، مروراً بأسد

بن الفرات الذي على يده ابتداء التدوين الفعلي لمذهب الإمام مالك، ووصولاً بالإمام الشافعي الذي أملى على تلاميذه بعض مصنفاته فكان رواية مذهبه الجديد على يد الربيع المرادي، ووصولاً إلى الإمام أحمد، الذي كره تصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث حتى أن مسنده رتبته ابنه عبد الله، ومع ذلك حرص تلاميذه على تدوين مذهبه كالأثرم و الحربي وغيرهم) أبو الحاج ٢٠٠٤م، ص ٣٠٩).

٢. أن من الأمور الملاحظة التي لها تأثير في الفكر الإسلامي ما كان بين أئمة المذاهب من تعاون بينهم، فهدفهم واحد وهو خدمة شرع الله. فقد كان الأئمة وكبار أصحابهم كأسرة واحدة، يأخذ هذا من ذلك، وذلك من هذا، إذ أن ثلثي المسائل الفقهية مسائل وفاق بينهم (أبو الحاج، ٢٠٠٤م، ص ١١٩). ولاشك بأن ذلك له تأثير في تخفيف حدة التعصب المذهبي الذي دفع البعض لاتهام ليس فقط أتباع المذهب بل تجاوز ذلك إلى إمام المذهب نفسه.

٣. لقد كان لأصحاب المذاهب الفقهية الفضل بعد الله في الخروج من الفوضى الفقهية، حتى لا يخرج أي أحد ليفتي للناس على هواه ودون تأصيل.

٤. إن من حكمة الله اختلاف المجتهدين، وفي ذلك توسعة على الأمة، بوجود عدة آراء في المسألة الواحدة، وإن كان الاختلاف في الفروع وليس في الأصول.

٥. أن للمذاهب أثر في فتح القرائح وطلب العلم وشحذ الأذهان، ولهذا أثره على الحركة العلمية بلا شك.

### الفصل الثالث: تأثير المدرسة الفقهية على الفكر التربوي الإسلامي:

#### المبحث الأول: مكانة المدرسة الفقهية:

تمتعت هذه المدرسة بالكثير من النفوذ والانتشار، حتى عدت بأنها أهم المدارس الإسلامية وأوسعها في مجال التربية وأكثرها انتشاراً وتأثيراً، ولقد لعبت المدرسة الفقهية دوراً بارزاً في تاريخ التربية الإسلامية، وفي نشر الدعوة الإسلامية إذ أن حركة التعليم

الأولية في الكتابات قامت على عائق هذه المدرسة إلى جانب تقيده الناس بأمور الدين (حجازي، ١٤١٧هـ، ص ٢٠٨).

ومن الأسباب أيضا لكون هذه المدرسة أكثر شيوعاً وانتشاراً ونفوذاً وتأثيراً، كونها أكثر المدارس انغماساً في أمور التعليم بحكم أهدافها وبحكم تأثيرها على أمور الحكم، ففي وقت كانت مدرسة التصوف محصورة على طائفة معينة وتركز على حلقات المريدين والخلان ثم تدرجت حتى وصلت إلى علم الباطن الذي لا يقدر عليه الناس العاديين إلا مؤمن لديه القدرة على الاتصال والتواصل، وهذه السمات لا تتوفر في العامة ولذا اندهش هؤلاء من خوارق وكرامات القلة القليلة، في هذا الوقت ظهرت علوم الفقه مبسطة لمن أراد الاستزادة منها، كذلك فإن انشغال مدرسة المتكلمين بالأمور العقيدية والنحوية وبقضايا تهم المتقفين دون العامة، جاءت مدرسة الفقهاء تخاطب الصغار والكبار بلغة سهلة ومفهومة بل أن الفقهاء استطاعوا ترويح تيار معين ضد المتكلمين بل واتهامهم في بعض الأحيان بالكفر. إضافة إلى ذلك انشغال مدرسة الفلاسفة بأمور الحكمة القديمة وبالفكر اليوناني وكون روادها ومترجموها في بداية الأمر من النصارى واليهود وغيرهم وهؤلاء لهم ثقافتهم المختلفة مما صرف الناس عن هذه المدرسة، ولذا رفضت المدرسة الفقهية الاعتراف بوجود الفلسفة والفلاسفة وهاجمتهم من خلال العديد من المؤلفات والفتاوى ككتاب: نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطلق اليونان لابن تيمية وغيره من الكتب. أما المدرسة الشيعية فقد استطاعت الوصول إلى قلوب بعض الناس ونجحت في إقامة دول إلا أنها بما تعتقده من وجود أئمة معصومين تسقط عنهم بعض التكاليف والتسليم بوجود إمام حاضر وغائب تحتاج إلى قابلية خاصة، وليس من السهل على الناس أن يعرضوا أنفسهم للاضطهاد من أجل التشيع أو التنازل عن خمس ما لهم من أجل الإمام، ولذا أقبل الناس على المدرسة الفقهية التي تؤمن بسواسية الجميع في التكاليف (حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ص ١٠٠-١٠١، ١٢٨-١٣١).

ويُعلل إقبال جمهور المسلمين على المدرسة الفقهية التي تعتمد القرآن الكريم والسنة النبوية بأنها الطريقة المثالية في الجمع بين الدين والدنيا بما يحقق المصلحة في الجانبين وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم خير شاهد على ذلك (الأهواني، د-ت، ص ٩٢).

- ومن العوامل التي دفعت بالناس إلى الإقبال على مدرسة الفقهاء منها:
- أن غالبية المسلمين من السنة، ومن ثم فكان فقه المذاهب الأربعة أقرب إليهم من أي فقه.
  - الفقهاء أقرب إلى روح الشرع وبالتالي أقرب إلى الشعب وخاصة الكادحين والبسطاء منهم.
  - أنه لما كان دور الفقهاء في نشر العلوم الإسلامية والدعوة إلى الله، فإنهم قاموا بجهود كبيرة في تبسيط تلك العلوم ونشرها ودراستها وتدريبها.
  - إن هذه المدرسة توفر لخرجيها بعض الوظائف المرموقة خاصة إن كان الخريج من حلقات ومدارس التعليم العالي، مما جعلها كمراكز التدريب والتعليم التي تعد اليد العاملة بما يتناسب واحتياجات السوق.
  - إن الفقهاء تولوا مناصب القضاء ولذا نشروا مذاهبهم وأفكارهم، وأن كان هناك فترات تراجع لدور الفقهاء وعلاقتهم بالأمر إلا أن هذا يعد استثناءً (حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ص ١٣٢-١٣٤).

وإن كان هناك عوامل ساعدت على ازدهار الفقه عموماً من أهمها: قوة الدافع الإسلامي لدى الفرد المسلم على التعليم والتعلم، فهناك دافع فطري يدفع الإنسان للاستطلاع وقد يكون لغرض من أغراض الدنيا وقد يكون ابتغاءً لرضا الله، أيضاً حرص المجتمع الإسلامي كله متمثلاً بالآباء والأمهات فكانوا يدفعون بالأبناء لطلب العلم ومن أشرف العلوم بلا شك العلوم المتصلة بالقرآن الكريم من فقه وحديث وغيرهما، ومن العوامل أيضاً وجود احتياج فعلي للفقه في كل مكان وزمان وأن هناك بعض القضايا المستجدة التي تحتاج إلى الفقهاء، إضافة إلى كل ما سبق تشجيع الحكام للفقهاء والفقه ودراسته، كما شجعوا التأليف في مجال الفقه وذلك نتيجة طبيعية

لكون كثيرا منهم فقهاء حتى بلغ بهم الأمر أن عقدوا مجالس لامتحان الفقهاء بأنفسهم، ومن العوامل أيضا حرية الاجتهاد والقياس، ونتيجة لتلك الحرية انتشرت المذاهب الفقهية المتعددة وإن كان بعد ذلك جاءت عصور التقليد وسد باب الاجتهاد (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ص ٦٩-١٠٩).

أما في العصر الحاضر فلقد زاد من انتشار هذه المدرسة دعم بعض حكومات الدول الإسلامية لهذه المدرسة، كذلك دعم بعض الأفراد الذي أفرز إنشاء جامعات إسلامية في عدة بلدان إسلامية خصوصا في شبه القارة الهندية، أيضا من العوامل ظهور السلفية وهي تتجه إلى تحكيم الكتاب والسنة دون تعطيل أو تشبيه تدعمها سلفية قديمة عند الحنابلة وسلفية معاصرة عند محمد بن عبد الوهاب وحسن البنا والشوكاني وأبو الحسن الندوي وغيرهم (حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ص ١٣٥-١٥٨).

كل هذه الجهود زادت من إقبال الشباب من الذكور والإناث على هذه المدرسة. وهذه المكانة لهذه المدرسة لا تعني إلغاء دور المدارس التربوية الأخرى، فلكل مدرسة أثرها في الفكر الإسلامي، ولا يمكن القول بأن هذه المدرسة هي الوحيدة الممثلة للفكر الإسلامي.

#### **المبحث الثاني: أهداف المدرسة الفقهية:**

لقد انتشرت المدرسة الفقهية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي لتحقيق أهدافها المتمثلة في الآتي (حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ص ١٠٤-١٠٦) و(حجازي، ١٤١٧هـ، ص ص ٢١٠-٢١٣):

أ- الدفاع عن الكتاب والسنة اللذان تعرضا لهجوم من قبل المغالين من الداخل وكذلك من أعداء الإسلام من الخارج، ولذا تصدى العلماء من فقهاء ومحدثين للدفاع عن مصادر الشريعة الإسلامية.

ب- نشر العقيدة الإسلامية والدعوة إلى الإسلام، فلقد اهتمت هذه المدرسة بتبليغ الدعوة الإسلامية إلى الناس جميعاً فقال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (المائدة: ٦٧)، والتبليغ يقتضي الشرح والإيضاح للقرآن الكريم وأحكامه

حتى تتضح لكل الناس. ولذا نجد الفقهاء لم يعزلوا أنفسهم عن مجتمعهم بل أن تفاعل الفقهاء مع العامة جعل هؤلاء يؤازرون الفقهاء على المتكلمين والفلاسفة(حجازي، ١٤١٧هـ، ص ٢١١). وهذا أدى إلى أن موقع الفقهاء أصبح واضحاً في مؤسسات التعليم لوضوح مباحثهم وعلومهم، وكونها مما يحتاجه الإنسان المسلم في حياته ومعاملاته(حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ١٠٤).

ج- إعداد القضاة ورجال الحسبة، فقد قامت المدرسة الفقهية بهذه المهمة على أكمل وجه فخرجت أشهر الفقهاء والعلماء الذين امتد ذكركم ونفعهم حتى العصر الحاضر، فتولوا الحكم بين الناس وفقاً لأحكام الشريعة، ولذا كانت هذه المدرسة في هذا المجال أقرب إلى معهد القضاء الذي يدرب القضاة ليتولوا هذا المنصب(حجازي، ١٤١٧هـ، ص ٢١١). لقد كانت مدرسة الفقهاء والمحدثين من أكثر المدارس تلبية لحاجة السوق، فقد كانوا يعدون الموظفين في دواوين الدولة على عكس الصوفية الذين كانوا يعدون من أجل الوحدة والانقطاع، والمتكلمين الذين كانوا يعدون من أجل الحوار والإفحام والإفهام(حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ١٠٥). كذلك اهتمت المدرسة الفقهية بإعداد رجال الحسبة الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن الرذائل والمنكرات.

د- إعداد المعلمين والعلماء وذلك ليتابعوا مسيرة الدعوة إلى الله، ولذا كان التركيز على إعداد المعلمين والعلماء الذي يوضحون أحكام الشريعة والسنة النبوية الشريفة والأئمة الذي يؤمنون المسلمين في الصلاة والمعلمون الذين يدرسون أبناء المسلمين.

### المبحث الثالث: مصادر المدرسة الفقهية ومنهجها العلمي:

هناك عدة مصادر اعتمد عليها علماء الفقه، وهم وأن اتفقوا على القرآن الكريم والسنة النبوية كمصدرين من مصادر الفقه إلا أنهم اختلفوا في الأخذ ببقية المصادر كالإجماع والقياس والاستحسان وقول الصحابي وعمل أهل المدينة والحيل الشرعية والمصالح المرسله وسد الذرائع، بل أنه حتى السنة النبوية وُجد من الفقهاء من أجاز

الأخذ بالحديث المرسل والحديث الضعيف كالحابطة ومنهم من تشدد في قبول الحديث كالحنفية.

والمفت للنظر أنه في القرون الأولى من عمر الدعوة الإسلامية كان هناك فرصة كبيرة للفقهاء أن يجتهدوا فيما استجد من قضايا في المجتمع المسلم والاجتهاد هو هو استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية، على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد فيه (الأمدي، ١٩٨٠م، ص ١٣٩)، ولذا حارب الفقهاء التقليد.

إن حرية الاجتهاد في تلك العصور أتاحت للفقهاء استخدام القياس الذي هو: إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لاشتراكهما في علة الحكم (الأمدي، ١٩٨٠م، ص ٢٦٣). و القياس الأصولي ينتقل من الجزئي إلى الجزئي، ومن الأشباه إلى الأشباه باحثاً عن علة الأحكام، حيث أنه الشكل الأمثل للاستقراء العلمي الدقيق وهو يقوم على فكرتين هما:

أ- فكرة العلية (السببية) القائلة بأن لكل معلول علة.

ب- قانون الاطراد في وقوع الحوادث (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ١١٢).

وخلاصة الأمر: أن الفقهاء اعتمدوا على النظر العقلي في المسائل الشرعية، وهو يختلف عن نظر الفلاسفة العقلي، فالعقل عند الفقهاء لا يقرر ابتداءً إنما يؤيد ما جاء به الدين (علي، ١٤١٢هـ، ص ٦٦). كذلك فإن الفقهاء اعتمدوا في اجتهادهم على الطريقة التحليلية فيما يتعلق بالنصوص والطريقة الاستقرائية فيما لا نص فيه، فكان الفقهاء يأخذون النص كقاعدة ثم يفسرونه ويحللونه ويستخرجون منه النتائج والفروع، أما إذا لم يكن هناك نص فإنهم كانوا حذرين خائفين من وضع قواعد عامة في البداية حتى لا يصطدموا بالنصوص فكان اجتهادهم مبني على الاستقراء والخبرة (محصاني، ١٩٧٥م، ص ٣٩).

بقيت الإشارة إلى أن كل ما ذكر سابقاً من مصادر هو متعلق بأهل السنة وإلا فإن هناك المذهب الشيعي الذي يجعل القرآن والسنة والإجماع والعقل مصادر للتشريع لديهم

بالرغم من اختلافهم في وقوع التحريف في القرآن وقبولهم للأحاديث التي تنتهي بإسنادها إلى أهل البيت فقط وهكذا مما يضيق المقام بذكره هنا.

#### المبحث الرابع: أبرز المؤسسات التعليمية عند الفقهاء:

لقد تم الحديث في هذا المبحث عن أنواع المؤسسات التعليمية عند الفقهاء ومناهجها التعليمية وطرق التدريس ووسائلها وذلك على النحو الآتي:

#### أولاً: أنواع المؤسسات التعليمية عند الفقهاء:

لقد تعددت أماكن التعليم فكان يتم في الكتاب تارة، وفي المسجد تارة أخرى، كما كان يتم في منازل الفقهاء، وكذلك في بعض المدارس الإسلامية هذا بالنسبة للمرحلة الأولية من التعليم، وهناك مؤسسات أخرى بالنسبة للمرحلة الثانية من التعليم التي تهدف إلى بناء الشخصية الإسلامية عقدياً وفكرياً وسلوكياً، تلك الشخصية العابدة لله، القادرة على حمل الأمانة والقيام بمهمة الاستخلاف، وتلك المؤسسات هي دور العلم ودور الخلافة والطرق والربط وحوانيت الوراقين والمكتبات حتى السجون (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ص ١٩٩-٢٠١). وفيما يلي شرح موجز لأهم تلك المؤسسات التعليمية وذلك على النحو الآتي:

١- المساجد: لقد صلى الأطفال في المسجد منذ بداية الدعوة الإسلامية ولم يمنعوا من ذلك كذلك لم يمنعوا من طلب العلم فيها، فكانت تعقد لهم الحلقات بعد صلاة العصر، واستمر الأمر حتى العصر الحاضر، هذا وإن كان هناك ترحفاً من بعض الفقهاء التريبيين كالقابسي (في الأهواني، د-ت، ص ٣٢٣) من مسألة تعليمهم بالمسجد وينقل عن الإمام مالك حين سئل عن ذلك فأجاب إن كان بلغ الصبي موضع الأدب، ولم يكن يعيب بالمسجد فلا بأس وإن كان غير ذلك فلا أحب ذلك، والعلة في ذلك أنهم لا يتحفظون من النجاسة. أن التعليم في المساجد كان يقوم على تعليم أمور الدين. أما بالنسبة للكبار فلقد عقدت كثير من الحلقات في المساجد لمختلف العلوم وكانت المساجد في القرون الخمسة الأولى أشبه بالجامعات الحرة بحيث يتعلم الطلاب ممن يشاءون من العلماء (مرسي، د-ت، ص ٢٠٢).

٢- الكتاتيب: وكانت على نوعين أحدهما: عبارة عن مكان يستأجره المعلمون ويتعلم فيه الصبيان بأجر. والآخر: يتمثل في كتاتيب عامة مجانية للفقهاء من أبناء المسلمين، ويعد الكتاب هو المرحلة الممهدة للمرحلة التخصصية في الفقه، لذا تعلم كثير من الفقهاء في البداية فيها (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ص ١٣٩ - ١٤٠).

٣- منازل الفقهاء: ولقد عرفها المسلمون كمؤسسة تربية أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم أول مؤسسة تربية في الإسلام، ولذا حذا بعض الفقهاء حذوها حتى امتلأت بيوتهم بطلاب العلم. وهذا خاص بالفقهاء الموسرين الذين كانوا يعدون بيوتهم بطريقة تصلح لاستقبال الطلاب بل وصل الأمر ببعضهم إلى تقديم الأكل والنوم لطالب العلم (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ٢٠٨).

٤- المدارس: لقد عنت المدارس بدراسة العلوم الدينية أكثر من بقية العلوم، وكانت هذه المدارس تدرس العلوم الدينية وبخاصة الفقه على مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة. إضافة إلى ذلك أن الخلفاء قد دعموا إنشاء المدارس الموجهة لخدمة مذهبهم فمثلاً البويهيون والفاطميون من المذهب الشيعي ثم لما جاء السلاجقة دعموا المذهب السني ولذا أنشأوا مدارس عدة لنشر هذا المذهب وكان ذلك على يد الوزير نظام الملك وسميت باسمه (المدرسة النظامية)، ولقد انتشرت المدرس النظامية في الأقطار المختلفة (شليبي، ١٩٧٣م، ص ١١٦). وفي العهد الأيوبي أنشئت بعض المدارس في مصر ودمشق وبيت المقدس كالصالحية والكاملية والعزيرية ولقد اهتم الخلفاء بتلك المدارس ووفروا لها جميع التسهيلات، حتى أنها أصبحت تدفع بالبعث إلى تغيير مذهبهم الفقهي تبعاً لتلك المدارس، فلقد تمذهب الكثير من المعلمين والطلاب بالمذهب الشافعي في الفقه اقتداءً بالمدارس النظامية طلباً للمغانم والمناصب مما دفع بدخول أهل التجارة بالمذاهب. ولا يعني ذلك التكرار لإسهامات تلك المدارس العلمية، كذلك فإن بناء النظاميات صاحبة ازدهار مدارس المذاهب الأخرى كالحنفية والمالكية والحنابلة إلا إن ذلك الازدهار والبناء للمدارس صاحبة الكثير من الفتن بين أتباع المذاهب الأربعة خصوصاً بين الحنابلة والأشاعرة وخاصة

في بغداد، وأن كان بعض الخلفاء تداركوا الأمر فأنشأ المستنصر بالله مدرسته لخدمة كل المذاهب الأربعة (حسان وجمال الدين) (١٤٢٤هـ، ص ص ١١٧-١١٨، ١٢٠-١٢١).

ولا يفهم من ذلك الدعم من قبل الدولة للمؤسسات التعليمية أنها الوحيدة في تقديم الدعم والتمويل بل فاق الأفراد الحكام في المساهمات لدعم التعليم خصوصاً من أعيان الأمة وأثريائها الذين كانوا يمدون الفقهاء بالمكافئات وكذلك الطلاب تشجيعاً لهم بل وصل ببعضهم لشراء مستلزمات العلم من أوراق وأحبار وغيرها، ودعم مؤلفات الفقهاء (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ص ٤٣٤-٤٣٦).

٥- حوانيت الوراقين: وهي دكاكين صغيرة تباع فيها الكتب، ولم تكن لتجار ينشدون الربح إنما لفقهاء وعلماء من ذوي الثقافة العالية (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ص ٢١٤-٢١٥). وكان الفقهاء يقبلون على شراء الكتب التي تملأ من قبل أحد الفقهاء، بل أن هذه الحوانيت تسمح لمرتديها البحث والمبيت وإقامة المناظرات فيها.

٦- المكتبات: ازدهرت المكتبات في العصور الإسلامية، حتى ألحق بكل مسجد مكتبة، وذهب بعض الفقهاء إلى وقف كتبهم على المساجد طمعاً بنشر العلم، إلى جانب ذلك أنشئت مكتبات خاصة ببيوت الفقهاء، فقد حرصوا عليها بالرغم من فقر بعضهم. أيضاً أنشئت المكتبات العامة وهي مفتوحة للجميع، ولقد اهتم بها الخلفاء اهتماماً بالغاً فأصبحت إحدى أهم المؤسسات على الإطلاق. ومن هنا يتبين أن المكتبة لعبت دوراً كمؤسسة تربية لإعداد الفقهاء.

٧- أماكن أخرى للتعليم كدور العلم أو دور القراءة والضيافة والخلافة، وهي كالمدرسة اليوم وإن لم يطلق عليها هذا الاسم. كذلك هناك الحلقات الفقهية التي تعقد في الفضاء أو الطرق، وكذلك حرص المسلمون على العلم والتعليم في أوقات المحن في السجون، فكان الفقهاء يسألون بالمسائل ويجيبون حتى وهم في داخل السجون، كابن حنبل الذي كان يُسأل عن الحجامة مع الصوم فأجاب أنها تقطر.

## ثانياً: المناهج الدراسية في المدارس الفقهية:

ويمكن تقسيمها إلى نوعين من المناهج وهما:

١- المناهج في الكتاتيب: وهي لطلاب المرحلة الأولى (الصبيان) وهي تقسم إلى: مواد إجبارية وهي القرآن الكريم والصلاة والدعاء وبعض النحو القراءة والكتابة لأنها تؤدي إلى معرفة الدين والعبادات مما هو مفروض على المسلمين (الأهواني، دت، ص ١٦٢) و(حجازي، ١٤١٧هـ، ص ٢١٧). ومواد اختيارية كالحساب والشعر وأيام العرب وأخبارها. ولقد نظر الفقهاء إلى الحساب من وجهة نظر دينية، فهو فرض كفاية لضرورته في المعاملات والمواريث، وتحديد أوقات الصلاة. وهذه المواد الاختيارية هي ما يطلق عليها في العصر الحاضر بالنشاطات اللامنهجية (حجازي، ١٤١٧هـ، ص ٢٢١).

أما بالنسبة إلى القرآن الكريم فهو نقطة الارتكاز الذي يدور عليه التعليم عند الفقهاء، والمواد الأخرى كانت معينة على فهمه وحفظه فقط، ولذا رفض كثير من المعلمين تقديم أي علم عليه. لقد كان للقرآن وللسنة النبوية وعلومهما وفروعهما أهمية في مناهج المدرسة الفقهية (حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ١٠٦-١٠٧).

لقد بدأت المدرسة الفقهية محدودة، ثم اتسعت وصار لها مؤلفات ومذهب فقهي وأتباع ينشرون هذا المذهب، وإلى جانب العلوم الشرعية هناك النحو الصرف، وقد احتل منزلة عالية في تلك المدرسة، كذلك فإنه قد تم إهمال العلوم الأخرى والفنون وذلك أمر طبيعي بالنسبة لأهداف هذه المدرسة التي هدفت إلى إعداد قضاة وعلماء (حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ١٠٨)، وعموماً فإن مناهج هذه المدرسة قد تميزت بأنها مبسطة للجميع ليس فيها أسرار أو رموز كما في مناهج الصوفية أو الشيعة، فمناهج الفقهاء تعتمد على فهم النصوص ثم تفسيرها وروايتها ونقلها. وتعد المدرسة من أغزر المدارس إنتاجاً وتأليفاً وشرحاً وتلخيصاً، كل ذلك من أجل توصيل المعلومات للمسلمين بعامة وللدارسين بخاصة.

٢- المناهج في المرحلة الثانية (المتخصصة أو العليا): وهي لإعداد الفقهاء، واهتمت المنهاج هنا بإعداد الفقيه الموسوعي الملم بعدة علوم كالنحو والشعر والقرآن والحديث قبل أن يكون ملماً بالفقه، وهذا مما ساعد على وجود فقهاء على درجة عالية من الفهم والفكر في مجالات متعددة. إن موسوعية الفقهاء في القرون الخمسة الأولى تعود إلى تأثير المناهج آنذاك التي تحتوي على دراسة فرعيين وهما:

- علوم الوحي واللغة العربية (القراءات - الحديث - التفسير - الفقه - النحو - البلاغة - الأدب).
- علوم عقلية وهي الفرائض والرياضيات وغيرها (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ص ٢٣٦-٢٣٧).

### ثالثاً: طرق التدريس في المدرسة الفقهية ووسائلهم:

تنوعت هذه الطرق في المدرسة الفقهية ومنها:

١- طريقة السماع: لقد تربي الفقهاء على هذه الطريقة، خصوصاً أنه في القرن الأول لم تنتشر الكتابة وأدواتها، كذلك كره الناس كتابة أي شيء حتى لا يتداخل مع القرآن الكريم. فكان المتعلمون يتحلقون حول الفقيه ليسمعوا من حفظه أو من كتابه.

٢- طريقة الحفظ: وهي الطريقة الأساسية في المرحلة الأولية من التعليم، فكانوا يركزون على حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وكانت وسيلة عملية الحفظ تتم من خلال التكرار والتلقين (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ١٥٣). وانتقلت وسيلة التكرار من القرآن الكريم إلى الفقه. ولقد كان التلاميذ يحفظون الكثير من المعارف في عقولهم ثم يستدعونها وقت حاجتهم لها. لقد كانت طبيعة المنهج تتجه إلى التعلم اللفظي والاعتماد على الذاكرة خصوصاً أن القرآن الكريم يجب حفظه من غير تحريف أو تبديل، ولقد امتد الحفظ لدى الفقهاء إلى حفظ نصوص الحديث والتفسير لأنها الأداة لعلمهم (الأهواني، د-ت، ص ١٨٤).

٣- طريقة الإملاء: وكان من عادة التلاميذ أن يذهبوا إلى الكُتّاب ومعهم الألواح والأقلام ليكتبوا ما يمليه الشيخ عليهم، علما بأن تلك الأغراض قد وفرتها المدرسة في القرن الرابع الهجري على حسابها (حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ١١١). ولقد ألفت العديد من الكتب في التراث التربوي الإسلامي حول الإملاء وآدابه ككتاب السمعاني (الإملاء والإستملاء) وغيره.

ولقد كان الشيخ يستعين بشخص يعيد ما يلقيه على الحاضرين، ويسمى المعيد، ويشترط فيه عدة شروط كالأدب مع الشيخ ونحوه.

٤- طريقة الاختلاف والمصاحبة أو الملازمة: واستخدمت هذه الطريقة في المرحلة الأولى من التعليم، وطريقة الاختلاف هي أن يتردد على المعلم في أوقات معينة دون أن يلزمه طوال الوقت، فالبخاري اختلف إلى مشايخ الحديث في البصرة وهو صغير، وأحمد بن حنبل اختلف إلى أبو يوسف القاضي. أما الملازمة فهي معروفة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد عُرف عن بعض الصحابة شدة ملازمتهم للرسول صلى الله عليه وسلم كأبي هريرة رضي الله عنه، وكذلك لازم تلاميذ الأئمة الأربعة ممن عرفوا بشدة ملازمتهم للفقهاء (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ١٥٩).

٥- الرحلة في طلب العلم: لقد امتازت هذه المدرسة باستخدام هذه الطريقة لإعداد الفقيه فكان عليه أن يرحل في الأمصار لأخذ العلم عن الفقهاء، وفي الرحلة تفرغ بالبعد عن الأهل والأوطان والاحتكاك بثقافات الآخرين وتقوية للإرادة، ولقد كان للرحالة فضل كبير في نشر العلوم وإدخال الكتب في البلدان التي يمرون بها بالرغم من جميع المشقات التي يكابدونها، ولقد عرف طلاب العلم أهمية طلبه من كبار العلماء مباشرة، ولذا قيل من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام، كذلك فإن المدرسة الفقهية على عكس غيرها منفتحة على المجتمع والاتصال بالناس ومخالطتهم وذلك أمر ضروري حتى يتحقق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأما العزلة فهي أمر غير محبب، ولم تقتصر الرحلة على الكبار بل أن الصغار

كثيراً ما ارتحلوا مع آبائهم وشاركوا آبائهم شيوخهم (الهندي، ١٤٢٤هـ، ص ص ١٦٠-١٦١).

٦- طريقة المناظرة: وقد أباح الإسلام إقامة الحجة والجدل بالتّي هي أحسن، قال تعالى { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة: ١١١]، وهذه الطريقة لها الفضل في إشعال الجذوة العلمية في بعض العصور الإسلامية خصوصاً حينما يشتد الخلاف بين الفرق. واشتهر بعض الفقهاء عن غيرهم بقوتهم في إقامة الحجة الناتجة عن قوة الإعداد العلمي كالشافعي مثلاً. أما عن سبب اهتمام العلماء بطريقة المناظرة فقد كان للرد على الخصوم وأهل البدع، ولبث الروح العلمية بين طلبة العلم ولمعرفة ما لدى الآخرين من آراء والوصول إلى الحق، إضافة إلى ذلك أن مدرسة الفقهاء كانت تمد الدولة بالفقهاء ورجال الحسبة الذين كان لابد لهم أن يتمرسوا المناظرة حتى يقوموا بدورهم في الدفاع عن الإسلام (حجازي، ١٤١٧هـ، ص ٢٦٤). إلا أن الجدل لم يبق على ما هو عليه من نبل الغاية وشرف المقصد، وإنما تحول لأداة لتغلب على الغير بالحق والباطل وذلك بسبب التعصب البغيض بين أصحاب المذاهب المختلفة والتدخل السياسي أحياناً أخرى.

٧- طريقة السؤال والجواب: وقد استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كما في حجة الوداع حينما سألهم عن الشهر واليوم. ودراسة الفقه كثيراً ما اعتمدت على الأسئلة والأجوبة، فقد كان الطلبة يوجهون السؤال تلو السؤال للمعلم فيجيبهم فيروونها عنه، ولا يفهم من ذلك عدم مشاركتهم بطرح حلول للمسائل المعروضة والاجتهاد في ذلك، بل أنه لم يكن موقفاً تعليمياً بمعنى أن العلاقة بين المعلم والمتعلم تحكمها حركته باتجاه واحد معلم مرسل ومتعلم مستقبل (علي، ١٤١٢هـ، ص ٨٧).

٨- طريقة القراءة على المعلم: وهي طريقة مستخدمة منذ بدء الدعوة الإسلامية، فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر ابن مسعود رضي الله عنه بأن يقرأ عليه القرآن

فاستغرب ابن مسعود رضي الله عنه من ذلك وقال: "يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟" فأخبره الرسول الكريم بأن ذلك أمر مجيب إليه (البخاري، ١٤٢٣هـ، رقم الحديث ٤٥٨٢، ص ١١٢٧).

٩- طريقة الشرح والتفسير: وهي طريقة تتناسب مع طبيعة العلوم الشرعية، ولذا نجد بعض الفقهاء يشرح ويفسر ويملي من كتاب أمامه خوفاً من النسيان والخطأ في كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو قد يكون ذلك من الذاكرة (حسان وجمال الدين، ١٤٢٤هـ، ص ص ١٠٩-١١٠).

### المبحث الخامس: الآراء التربوية لبعض مفكري المدرسة الفقهية:

اشتمل هذا المبحث على عرض لآراء بعض مفكري هذه المدرسة، حتى يتم الوقوف على مدى سبق هذه المدرسة للتربية الحديثة من خلال الكثير من الآراء والمبادئ التي جاء بها فقهاء هذه المدرسة ومفكروها، علماً بأنه تم الاختصار على عرض آراء هؤلاء المفكرين الذين تم اختيارهم من قرون ومذاهب فقهية مختلفة لمعرفة أهمية تأثير هذه المدرسة على الفكر التربوي الإسلامي في تلك العصور وهم كالتالي:

١- الإمام أبو حنيفة (٨٠هـ-١٥٠هـ) في القرن الثاني الهجري وهو صاحب المذهب الحنفي.

٢- الإمام ابن سحنون (٢٠٢هـ-٢٥٦هـ) في القرن الثالث الهجري من المذهب المالكي.

٣- الإمام الماوردي (٣٦٤هـ-٤٥٠هـ) في القرن الخامس الهجري من المذهب الشافعي.

٤- الإمام ابن تيمية (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ) في النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الهجريين من أصحاب المذهب الحنبلي.

ولا يعني الاختصار على هؤلاء الأربعة إغفال دور العديدين وإسهاماتهم في كثير من القضايا التربوية كالقابسي (٤٠٣هـ) وابن عبد البر القرطبي (٤٦٣هـ) والزرنجي (٥٩١هـ) وابن جماعة (٧٣٣هـ) وابن حجر الهيتمي (٩٧٣هـ) وغيرهم كثير.

أولاً: الإمام أبو حنيفة ((٨٠ هـ - ١٥٠ هـ)):

لقد تم اختيار الإمام أبو حنيفة لعدة أسباب منها: قلة المؤلفات التي تتعلق بالتربية لأصحاب هذا المذهب، إلا ما كتبه أبو حنيفة في كتابه الموجود بين الأيدي اليوم وهو كتاب (العالم والمتعلم). وبالبحث عن تلاميذ أبو حنيفة ومؤلفاتهم قد لا تجد مؤلفاً واحداً في التربية والتعليم، وإن كانت مؤلفاتهم فيها الكثير مما يطلق عليه فقه التربية. كذلك من الأسباب لاختيار الإمام أبو حنيفة إن ذلك أقوى من ناحية معرفة أثر ذلك المذهب الفقهي مباشرة من إمامه على التربية عبر كتابه العالم والمتعلم الذي هو رواية أبي مقاتل حفص بن سلم السمرقندي عن الإمام أبا حنيفة، أما عن اسمه وحياته فقد سبق الحديث عنه في هذا البحث.

أما عن أهم آرائه التربوية من خلال كتابه، ومن خلال صفاته، فلأبي حنيفة آراء في الفكر والأخلاق والاجتماع، ومن هذه الصفات والآراء (أبو زهرة، د-ت، ص ص ٢٠٤ -٢٠٩):

- أن مخالطته للناس في الأسواق ومعاملته لهم قد جعلته يكتب حول أخلاق الناس، وما ينبغي أن يتبعه الشخص معهم .
- أنه في رسالته التي ودع بها أحد تلاميذه ما يشير إلى معرفته بأحوال النفس والتعمق فيها فمثلاً حذر من إساءة عشرة الناس حتى لا يكسب عداواتهم، وأمره بإنزال الناس منازلهم على اختلاف مراتبهم الاجتماعية، وأن يقرب إليه الأختيار وأن يبتعد عن احتقار الآخرين، وأوصاه بالصبر وحسن الخلق وسعة الصدر .
- حث أبو حنيفة على التربية الجسمية والاهتمام بنظافة الملابس وضرورة استخدام الطيب.
- حث أبو حنيفة على التربية الاجتماعية المتمثلة بإعطاء الحقوق لأصحابها، فقد دعى تلميذه لإطعام الفقير، وزيارة المريض، وإفشاء السلام، والتأدب مع المخالفين للرأي، والتغافل عن الزلات، وعدم تكليف الناس ما لا يطيقونه، وأمره بالأمانة والصدق وعدم الغدر وإن غدر الناس.

وهذه الوصية تكشف عن ثلاثة نواح في أبي حنيفة وهي:

١. أنها تكشف عن عظيم أخلاقه، فلقد راض نفسه على مكارم الأخلاق والبعد عن سفاسف الأمور.

٢. درايته بشؤون الاجتماع وأخلاق الناس، جعلته يدرك بأن مصلح الجماعة لا بد وأن يكون ودوداً، يألف ويؤلف لا يخالف ولا ينافر.

٣. تكشف له وصيته حرصه على تلاميذه فهو يتعهدهم بالنصح والتوجيه، وكان يؤنسهم ويتعافل عن زلاتهم ويرفق بهم ويسامحهم، ويعطيهم من العلم ما يتفق مع مواهبهم (أبو زهرة، د - ت، ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩).

أما عن اهتمامات الإمام التربوية الذي عاش التربية والتعليم منذ نعومة أظفاره، وعاشهما بعد ذلك تعليماً وإرشاداً وتوجيهاً حتى قبضه الله تعالى في السبعين من عمره، فلقد حرص على ضرورة التفرع لتحصيل العلم وضرورة الإخلاص فيه والحرص على ظهور الحق، كذا ما عرف عنه من مواساته لطلابه وحسن مجالستهم وفتح بيته كل جمعة وإطعامهم، كذلك ما عرف عنه من عفوه عن المسيئين (غاوجي، ١٤٠٩هـ، ص ص ١٤٤ - ١٥٥). وكذلك عرف عنه منحه لطلابه حرية الكلام في مجالس العلم، حيث أن طريقة أبي حنيفة في درسه تشبه أن تكون دراسة لا إلقاء للدروس على التلاميذ، فالمسألة من المسائل تعرض له، فيلقيها على تلاميذه ويتجادل معهم في حكمها، وكل يدلي برأيه وقد يتصايحون حتى يعلو ضجيجهم، وبعد أن يقلبوا النظر من كل نواحيه، يأتي دور الإمام فيدلي برأيه فيكون صفوها فيقر الجميع به ويرضونه وفي ذلك تنقيف للمعلم والمتعلم معاً، فهو يجعل من طلابه مناظرين وليسوا متلقين (أبو زهرة، د - ت، ص ٨٧). ولذا كثير من الكتابات تؤكد على كون المذهب الحنفي مذهب جماعة لا مذهب فرد.

أن أبا حنيفة امتاز عن غيره من الفقهاء بتأكيده على الجانب الاجتماعي للعلم والتربية، مضافاً إليه الجانب الاعتقادي، ففي كتابه (العالم والمتعلم)، استعمل أبو حنيفة كلمة العلم بمعنى النظرية، وكلمة العمل بمعنى التطبيق، وكان يرفض العمل بدون العلم

فيقول: "اعلم أن العمل تبع للعلم كما الأعضاء تبع للبصر فالعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير" (أبوحنيفة، ١٤٢١هـ، ص ١١).

كذلك أكد أبو حنيفة على ضرورة الوحدة الاجتماعية من خلال التعليم فقال: "لأن الله عز وجل إنما بعث رسوله رحمة ليجمع به الفرق ويزيد به الألفة" (أبوحنيفة، ١٤٢١هـ، ص ١١). وكذلك أكد أبو حنيفة على أن الغرض من طلب العلم - اجتماعياً - هو أمران: تبليغ العلم للآخرين وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (رضاء، ١٤١٨ هـ، ص ١٢٨).

ثانياً الإمام ابن سحنون (٢٠٢هـ-٢٥٦هـ) :

هو أبو عبد الله عبد السلام بن سعيد التتوخي. ولد بالقيروان عام ٢٠٢هـ في القرن الثالث الهجري وتوفي عام ٢٥٦ هـ. ولقد حضر مجالس العلم في القيروان، وقام برحلة دينية وعلمية لأداء فريضة الحج ولقاء علماء البلاد الإسلامية. ولقد تعاونت عوامل عديدة في تكوين فكر ابن سحنون فأخرجته فقيهاً مالكياً متميزاً ومريباً إسلامياً كان له السبق في معالجة قضايا تربية الأبناء في الإسلام، ومن أبرز هذه العوامل (الرشدان، ٢٠٠٤م، ص ٢٧١ - ٢٧٢):

- والده الذي كان من أوائل شيوخ الفقه المالكي في شمال أفريقية بشهادة كل من اتصل به، بالإضافة إلى حرص والده على تربية ابنه، فقد كان يسمح له بمناظرته ومناقشة في مسائل العلم.

- النهضة العلمية التي عاصرها التي تمثلت بالتنافس الكبير بين العواصم الإسلامية كالمدينة والقاهرة والقيروان في توفير أسباب البحث العلمي والتعمق فيه، وهذا الجو العلمي المزدهر أثر بآب ابن سحنون.

لقد ترك ابن سحنون عدداً كبيراً من الكتب والرسائل في مختلف العلوم، وأهم ما ألف في مجال التعليم وهو رسالته المعنونة (آداب المعلمين)، وهي رسالة صغيرة نسبياً، لا يتجاوز عدد صفحاتها ستة وعشرون صفحة، تحوي الكثير من الدلالات العظيمة، وقد أثرت هذه الرسالة فيمن جاء بعده من العلماء كالقابسي مثلاً (الأهواني، د - ت، ص ٥٧).

أما عن أهم الآراء التربوية المتضمنة في رسالته آداب المعلمين فمنها (مرسي، ١٤٢٣ هـ، ص ص ٣٠٨ - ٣١٣) و(العمارة، ١٤٢٦ هـ، ص ص ١٧٠ - ١٧٤) و(الفيثوري، ١٤٠٩ هـ، ص ص ٢٣٣ - ٢٤٠) و(الشافعي، ١٤٠٩ هـ، ص ص ٢٥٣ - ٢٧٥):

١. أكد ابن سحنون على فضل تعليم القرآن وتعلمه، ولذا أورد الكثير من النصوص سواء من القرآن الكريم أو السنة الشريفة لبيان فضله، وأنه هو العلم.
٢. أكد ابن سحنون أيضاً على وجوب العدل بين الصبيان في التعليم غنيهم وفقيرهم.
٣. لقد تحدث ابن سحنون عما يجوز في تأديب الصبيان وما لا يجوز. وحذر من الضرب أكثر من عشرة أسواط، إن كان التأديب على اللعب، واشترط أن يكون التأديب بسبب منفعته لا بسبب غضب المؤدب، و ألا يكون الضرب سبباً في إيذاء جسده.
٤. أكد ابن سحنون أيضاً على أنه لا يجوز للمعلم أن يحمل المتعلم فوق ما يريد أن يحفظه من القرآن الكريم إلا بأذن أبيه.
٥. أما ما يتعلق بالأجر، فإن للمعلم أن يأخذ الأجر على التعليم، إلا أنه لا يكلف الصبيان فوق ذلك من هدية ونحوه.
٦. التأكيد على عدم إشغال الصبيان بإرسالهم لطلب من تغيب من زملائهم إلا بإذن أولياء أمورهم، أو تكون المواضع قريبة.
٧. التأكيد على عدم تكليف أحد من الصبيان بالقيام بالضرب، وألا يجعل عليهم عريفاً إلا أن يكون قد ختم القرآن الكريم. وكأن ابن سحنون قد وضع هذه الشرط في العريف حتى يكون هذا العريف قد اختلق بأخلاق القرآن الكريم فيكون بعيداً عن ظلم الآخرين.
٨. خصص ابن سحنون في رسالته جزء لا بأس به للحديث عن ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان، وأنه لا يحل له الانشغال عنهم.

٩. كتب ابن سحنون عن المنهج الدراسي، وأنه يتألف من قسمين: قسم إلزامي وهو القرآن الكريم، ويستلزم ذلك تعليم إعراب القرآن الكريم والهجاء والخط والقراءة. وأما القسم الاختياري فهو تعليم الحساب والشعر والنحو، فتعليمها ليس واجب على معلم الصبيان إلا إذا اشترط عليه. وكان ابن سحنون يحبذ قراءة أهل المدينة، وهي قراءة الإمام مالك ويسميتها القراءة الحسنة.

١٠. أما ما يتعلق بأخذ المعلم الأجر، فقد أفرد ابن سحنون لها باباً حول ما جاء في إجارة المعلم ومتى تجب. وهذه القضية تناولها أعلام الفكر التربوي الإسلامي بإسهاب. ويرى ابن سحنون مستنداً إلى الفقه المالكي، جواز أن يؤجر المعلم شهرياً أو سنوياً، وأنه قد يستأجره مجموعة من الآباء لتعليم أبنائهم وغير ذلك.

١١. أما عن مكان التعليم فهو الكتاب، وهو مكان يستأجره المعلم للتعليم على حسابه الخاص، ولا يجوز تعليم الصبيان في المساجد، لأنهم لا يتحفظون من النجاسة.

١٢. أما عن طريقة التدريس التي استخدمها ابن سحنون في تعليم الصبيان، فقد كانت تركز على التدرج في التعليم، فلا يجوز أن ينقلهم من سورة إلى سورة حتى يحفظونها بإعرابها وكتابتها، وكذلك دعى إلى أن يخصص المعلم وقتاً للمناقشة، حتى يتعلم الصبيان أصولها، وآداب الاستماع.

ولقد كان لهذه الآراء المتقدمة لابن سحنون أثراً كبيراً على التراث الفكري التربوي حتى اليوم.

### ثالثاً: الإمام الماوردي (٣٦٤هـ - ٤٥٠هـ):

هو أبو الحسن علي بن محمد البصري، الشهير بالماوردي، من وجوه فقهاء الشافعية، وإمام في الفقه والأصول والتفسير، ولقد ولد في البصرة عام ٣٦٤هـ، وتوفي عام ٤٥٠هـ في بغداد (العمامرة، ١٤٢١هـ، ص ٢١٢).

وللماوردي كتب مثل: الحاوي، والأحكام السلطانية، وكتاب الاقتناع، وكتاب في التفسير، وكتاب أدب الدنيا والدين، وكتاب قانون الوزارة وسياسة الملك، وكتاب أعلام النبوة وكتاب الأمثال والحكم.

أما عن أهم آراؤه التربوية التي أثرت في الفكر التربوي الإسلامي حتى العصر الحاضر، فيمكن استنباطها من كتابه (أدب الدنيا والدين)، حيث أنه كتاب نفيس من كتب التراث الإسلامي، وله مخطوطات عديدة في برلين والمتحف البريطاني وفي فاس والموصل وغيرها وله طبعات متعددة (الماوردي، ١٤١١هـ، ص ١٤).

ومن الآراء التربوية للماوردي الآتي:

١. الحديث عن أهمية العلم، فقد قال الماوردي: " أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، لأن شرفه يتم على صاحبه، وفضله ينمى عند طالبه قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (الزمر: ٩)، فمنع الله المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم" (الماوردي، ٩٧٨م، ص ٢٤).

٢. إن للتعلم موانع، وإن الإنسان قد يمتنع من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صغره أن يتعلم في كبره، وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته وبخشى من قلة ذهنه، وبعد فطنته، وهذا الظن كما يوضح الماوردي اعتذار ذوي النقص وخيفة أهل العجز، وله تبرير جميل في هذا الصدد، فهو يرى أن الإخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز.

٣. الحديث عن ما هو حد العلم؟ وما نهايته؟ ويجيب على هذا التساؤل قائلاً: "واعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محال، لَوْ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء: ٨٥)، (الماوردي، ٩٧٨م، ص ٢٦). والعلم لديه لا حدود له، ولكل علم فضله، لكن القرار بيد الإنسان، فله أن يتخصص بأي علم من العلوم، فهو يؤكد على أهمية التخصص العلمي، وإن كان يؤمن بالموسوعية، لكن قدرات العقل البشري غير قادرة على الإحاطة بكل العلوم، إن هذه النظرة لأهمية العلم وحدوده، ذات أهمية خاصة للتربية، نظراً لأن العلم يسهم في النمو الإنساني، وإذا كان المجتمع على مستوى الوعي والفهم لأهمية العلم، وحدوده،

فإن توجيه نمو العقل الإنساني يكون سليماً، وبالتالي يكون المجتمع سليماً، إذ يكون في المجتمع مجموعة من الأفراد المشتركين بالوعي والفهم والبحث.

٤. قسم الماوردي العلوم إلى قسمين، الأول: الوحي وعلومه في القمة، فالعلوم الشرعية في قمة المناهج، فهي التي ترشد الناس للطريق الصحيح، فالعبادات ضرورية ومهمة في حياة الإنسان. وأما القسم الثاني فهي: علوم تتعلق بالعلوم الدينية كالحساب وعلوم اللغة وغيرها. ومع ذلك فضل الماوردي العلوم الفقهية والتربوية، وإن كان يرى أن كافة العلوم مهمة وضرورية لحياة الإنسان وسلوكه، فالمهم لدى الماوردي ليس اكتساب العلوم فقط، ولكن المهم هو تكامل العلوم واكتسابها مع قوة النفس وذلك بصيانتها (العمائرة، ١٤٢١هـ، ص ٢١٧).

٥. تحدث الماوردي عن دوافع التعلم، تحت عنوان: الباعث على طلب العلم رغبة أو رهبة، وذكر بأن لكل مطلوب باعثاً، والباعث على المطلوب شيان: رغبة أو رهبة، فليكن طالب العلم راغباً راهباً، أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته، وأما الرهبة فمن عقاب الله لتاركي أوامره (الماوردي، ١٩٧٨م، ص ٣٥).

٦. أن صلة المتعلم بالعالم أساسية وضرورية في إحداث عملية تعلم سليمة، لأن المعلم هو أحد الأركان في عملية التعليم، ويمكن تحديد صلة المتعلم بالمعلم بالصبر على المعلم وإكرامه، والافتداء به، والأدب معه، والإيجابية، والاختيار بمعنى عن من يأخذ الطالب العلم؟ وذكر الماوردي خصائص المعلم الجيد المتمثلة بمجموعة من الآداب التي يجب على العالم (المعلم) الالتزام بها، ويمكن تقسيم هذه الآداب إلى أقسام ثلاثة وهي (العمائرة، ١٤٢١هـ، ص ٢٢٣): القسم الأول: ما يتعلق بالجانب الأخلاقي، كالتواضع ومجانبة العجب، والعمل بالعلم، وبذل العلم، والتتره عن شبه المكاسب. أما القسم الثاني فهو ما يتعلق بالجانب العلم، وهذا الجانب يتصل بالمواد أو المادة التي يدرسها العالم، من حيث الإمام بها والإحاطة بأبعادها، وهذا الجانب مهم جداً فلا يكف الإمام فقط بأساسيات المادة، بل لا بد من الاطلاع بالآفاق العليا ليلم بها. والقسم الثالث هو ما يتعلق

بالجانب المهني، ويقصد به: الكفاية المهنية للمعلم بما يسمح له مزاولته مهنة التعليم والتربية بنجاح، ولقد ركز الماوردي على العديد من المبادئ التربوية: كفهم طبيعة المتعلم وأهدافه من التعليم، والفراسة أو الموهبة التربوية التعليمية، والرفق بالمتعلمين، وإثارة دافعيتهم وتحبيبهم في العلم والنصح والإرشاد والتوجيه ومراعاة الفروق الفردية.

أما الشروط المتعلقة بالمتعلم، فمنها: صيانة النفس أو طهارتها، ومعنى ذلك، تجنب الرذائل والقبائح والمساوئ، لكي يسير إلى طلب العلم من ناحية، ولكي يحفظ دوره المسؤول عنه كقدوة في الناس من ناحية أخرى. ومن الشروط أيضاً النية والهدف الباعث، فالماوردي في هذا السياق يوجه طالب العلم إلى جوانب يجب أن يأتي بها منها: أن يقصد وجه الله تعالى بطلبه العلم، وأن يتخلق المتعلم بالأخلاق الفاضلة، وأن يكون غرضه إصلاح الدين والدنيا، وأن يزيل عن نفسه الجهل، ليتحلى دائماً بالعلم وأن يعمل بالعلم. وهناك الشروط العقلية، كالعقل والفتنة والذكاء، ووظيفته أن يستق به حفظ ما استطاع الطالب فهمه وإدراكه. أما الشروط الانفعالية، كالميل، والفراغ، وعدم وجود القواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض، الظفر بعالم سمح بعلمه، متأن في تعليمه، والاكتفاء بمادة تغنيه عن الطلب، حتى تغنيه عن الانشغال بطلب الرزق ولقمة العيش (الماوردي، ١٩٧٨م، ص ٧٤).

رابعاً: آراء الإمام ابن تيمية (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ):

وهو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام الدمشقي الحنبلي (الزركلي، ١٩٨٨م، ص ٩٤). ولقد ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي بسجن القلعة بدمشق عام ٧٢٨هـ، وهو فقيه سلفي حنبلي المذهب مجتهد وليس مقلد (مرسي، ١٤٢٣هـ، ص ص ٣٧٥ - ٣٧٦).  
أما عن أبرز آراؤه التربوية فمنها الآتي (الكيلاني، ١٤٠٧هـ، ص ٨٩، ص ص ١٠٧ - ١١٩) و (الكيلاني، ١٤٠٩هـ، ص ص ٢٥٣ - ٢٥٤، ص ص ٢٦٠ - ٢٦٣):

١. التركيز على مفاهيم أساسية تتصل اتصالاً مباشراً بأصول التربية كفلسفة التربية، وأهدافها، والمنهاج إلى غير ذلك.

٢. أن ابن تيمية انطلق في كل تقريراته التربوية من التزامه الراسخ بما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة باعتبارهما المصدران الموجهان لكل الأنشطة التربوية.

٣. أن البحث في ميدان التربية عند ابن تيمية كان استجابة لمعالجة الانحرافات التي ضربت مؤسسات التربية الإسلامية ومناهجها.

٤. أن الغاية النهائية في التربية عند ابن تيمية هي العلم النافع، الذي هو أساس الحياة الفاضلة والعمل بهذا العلم هو الذي يقيم الحياة ويمنحها البقاء.

٥. وضع ابن تيمية أهدافاً عامة للتربية وهي ثلاثة: ما يتعلق بتربية الفرد المسلم، فهو إنسان مفكر وعامل في كل وقت كما أمره القرآن والسنة، وهو يعيش من أجل عقيدته الإسلامية، ويموت في سبيلها. وأما الهدف الثاني فهو: إخراج الأمة المسلمة. والهدف الثالث فهو: الدعوة للإسلام في العالم، ويؤكد على خيرية الأمة، وأنه لابد للتربية من توجيه الأمة حتى يكتمل إعدادها إلى حمل الرسالة إلى العالم أجمع.

٦. يرى ابن تيمية أن العلوم نوعان: نوع يتعلق بتربية الإنسان من جميع الجوانب وهذه يسميها علوم سمعية لأنها جاءت بالسمع عن طريق الوحي، ونوع آخر وهي العلوم المتعلقة بجسده وعقله كالطب والهندسة والرياضيات، ويسميها عقلية، لأن الشرع اكتفى بالدلالة عليها ثم ترك للعقل أن يخوض بها، وكلا النوعين علوم شرعي، لأنها بالنتيجة تؤدي إلى الكشف عن آيات الله في الوحي والخلق.

٧. يؤكد ابن تيمية على أن لغة التعليم هي اللغة العربية، وذلك لأن إتقان العربية هو مطلب إسلامي وفرض عين، لأن فهم القرآن والسنة فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب (ابن تيمية، ١٩٩٦م، ص ٢٠٧).

٨. تنقسم طرق التربية عند ابن تيمية إلى طريقتين رئيسيتين هما: الطريقة العلمية، وطريقة الإرادة. وأساس هذا التقسيم هو أن للقلب - أداة التعلم - قوتان: القوة العلمية وهي قوة الفكر، وقوة الإرادة وهي قوة الرغبة، والفكر والإرادة يبدآن في

القلب وينتهيان بجزئيين مختلفين، فالفكر ينتهي بالدماغ، والإرادة تنتهي بالأعضاء. وهناك مجموعة من الشروط التي يجب مراعاتها في تطبيق هاتين الطريقتين ومنها :

- تكامل الطريقتين، لأن اقتصار التربية على الطريقة العلمية دون طريقة الإرادة يؤدي إلى وجود متعلمين ذوى علم بدون عمل، والعكس صحيح بالنسبة للإرادة عمل بدون علم.

- التدرج في التعلم، لأن المتعلم لا يصل درجة النضج دفعة واحدة سواء في القوة العلمية أو قوة الإرادة .

٩. يضع ابن تيمية آداباً عامة للمعلم وآداباً أخرى للتعلم. وهذه القضية كتب فيه العديد من العلماء، فالعلماء هم خلفاء الأنبياء، وهذه المنزلة إنما للعالم المقتدي بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، أيضاً على المعلمين أن يكونوا قدوة لتلاميذهم، وعلى المعلمين نشر علمهم بدون إهمال أو تهاون وأن يتعاهدوا علومهم بالحفظ والزيادة. أما آداب المتعلم فيجب عليه أن يخلص النية لله تعالى، وأن يشكر إحسان أستاذه إليه، وأن يقبل كل علم مهما كان مصدره، إن كان يهدف الوصول إلى الحقيقة.

١٠. ومن أهم القضايا التي تطرق إليها ابن تيمية منهج المعرفة، فهو يستمد من القرآن الكريم، ويطلق عليه الطريقة القرآنية أو الدلالة الشرعية. ويقوم هذا المنهج على تكامل الوحي والعقل في المعرفة والإيقان وفي كمال الأعمال والتطبيقات، فالوحي يقدم الخبر الصادق في الآية القرآنية، ثم يطلب من العقل أن يتحرى تفاصيله في مختبر الحياة (الآفاق والأنفس). وعلى المتعلم أن يستعمل قواه الثلاثة: العقل والسمع والبصر، ثم يقارن النتائج التي يتوصل إليها في آيات الآفاق والأنفس بالمعلومات التي في الخبر الصادق.

وامتاز فكر ابن تيمية عن غيره بالصلة الوثيقة بالقرآن الكريم والسنة النبوية ومنهج السلف من الأجيال الثلاثة الأولى في الإسلام. بالإضافة إلى ثقافته الموسوعية بالتراث

الإسلامي، كذلك امتاز في تفكيره التربوي بعكس حاجات مجتمعه وعصره، ولذا لما ساد الجمود والتقليد في الفكر الإسلامي في عصره انتقد ذلك وحاربه. ولقد آمن ابن تيمية بأن المفهوم الصحيح للتربية لا يوجد عند مذهب معين أو طائفة معينة، وأن الخصومات المذهبية شوهت صورة التربية الإسلامية (الكيلاني، ١٤٠٧هـ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥١).

### الخاتمة:

- في ضوء ما سبق، توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج وهي على النحو الآتي:
- صاحب ظهور المدرسة الفقهية بعضا من الظروف التاريخية والعلمية، فقد مر الفقه بعدة مراحل ابتداءً بالعهد النبوي مروراً بعصر الخلفاء الراشدين ثم عصر التابعين، ونشأة المدارس الفقهية المختلفة ثم عصر التدوين وعصر تكوين المذاهب وانتهاءً بعصر تقليد المذاهب.
  - تمتعت المدرسة الفقهية بالكثير من النفوذ والانتشار، حتى عدت بأنها أهم المدارس الإسلامية وأوسعها في مجال التربية وأكثرها انتشاراً وتأثيراً، ولقد لعبت المدرسة الفقهية دوراً بارزاً في تاريخ التربية الإسلامية، وفي نشر الدعوة الإسلامية.
  - أن من أهداف المدرسة الفقهية، الدفاع عن الكتاب والسنة، ونشر العقيدة الإسلامية، وإعداد القضاة ورجال الحسبة والمعلمين والعلماء.
  - أن هناك عدة مصادر اعتمدت عليها المدرسة الفقهية، كالقرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والقياس، والاستحسان، وقول الصحابي، وعمل أهل المدينة، والحيل الشرعية، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع.
  - تعددت المؤسسات التعليمية عند الفقهاء كالمساجد، والكتاتيب، ومنازل الفقهاء، والمدارس، وحوانيت الوارقين، والمكتبات، ودور القراء والضيافة وغيرها. كما تنوعت المناهج الدراسية، فكانت هناك مناهج الكتاتيب للصبيان، ومناهج للمرحلة العليا لإعداد الفقهاء. كذلك تنوعت طرق التدريس في المدرسة الفقهية، كطريقة السماع، والحفظ، والإملاء، وطريقة الاختلاف والمصاحبة، وطريقة المناظرة، والرحلة في طلب العلم، وطريقة السؤال والجواب، وطريقة القراءة على المعلم وطريقة الشرح والتفسير.

- لقد أسهم مفكرو المدرسة الفقهية وعلماؤها بالعديد من الآراء التربوية عبر القرون المختلفة كأبي حنيفة وابن سحنون والماوردي وابن تيمية وغيرهم، وسجلوا بذلك السبق على التربية الحديثة في كثير من القضايا التربوية.
- وفي ضوء ما سبق من نتائج فإن الباحثة توصي بالآتي:
- تضمين المقررات الدراسية إنجازات وإسهامات المدارس الفكرية المختلفة في كل المجالات، ومنها المجالات التربوية والتعليمية.
- تشجيع الباحثين في كليات التربية في الجامعات الإسلامية على الاهتمام بدراسة تاريخ الفكر التربوي الإسلامي، وخاصة المدارس الفكرية المختلفة.
- إجراء المزيد من الدراسات العلمية حول قضايا الفكر التربوي الإسلامي.

#### المراجع:

- الأمدي، سيف الدين (١٩٨٠م). الإحكام في أصول الأحكام. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الإبراهيم، محمد (١٩٨٩م). الحركة الفقهية في بلاد الشام في العصر الأموي ونزعتها الاجتهادية. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الكويت ٦ (١٤)، ص ص ٢٣١-٣٢٣.
- أحمد، هويدا (٢٠١٥م). التيار النقلي للفكر التربوي الإسلامي: دراسة تحليلية تربوية مقارنة لآثار ابن سحنون والقابسي التربوية. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان.
- الأشقر، عمر (١٤٠٢هـ). تاريخ الفقه الإسلامي. الكويت: مكتبة الفلاح.
- الأهواني، أحمد (د-ت). التربية في الإسلام. القاهرة: دار المعارف.
- البخاري، محمد (١٤٢٣هـ). صحيح البخاري. دمشق-بيروت: دار ابن كثير.
- بدران، أبو العينين، بدران (د-ت). تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود. بيروت: دار النهضة العربية.

- التركي، عبدالله(١٤٢٣هـ). المذهب الحنبلي دراسة في تاريخه وسماته وأشهر أعلامه ومؤلفاته. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن تيمية، أحمد(١٩٩٦م). اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم. لبنان: دار الكتاب العربي.
- أبو الحاج، صلاح(٢٠٠٤م). المدخل إلى الفقه الإسلامي. عمان: دار الجنان للنشر.
- حجازي، عبد الرحمن(١٤١٧هـ). التربية الإسلامية في القيروان. بيروت: المكتبة العصرية.
- الحربي، سند(١٤١٦هـ). التوجيه الإسلامي لتاريخ التربية. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- حسان، محمد وجمال الدين، نادية(١٤٢٤هـ). مدارس التربية في الحضارة الإسلامية. القاهرة- بيروت: دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني،.
- حسانين، محمد(١٤١٠هـ). الوجيز في تاريخ التربية. طنطا: مطابع غباشي.
- أبو حنيفة، النعمان(١٤٢١هـ). العالم والمتعلم.(تحقيق) الكوثري، محمد. مصر: المكتبة الأزهرية للتراث.
- الخطيب البغدادي، أحمد(١٩٣١م). تاريخ بغداد. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- رضا، محمد(١٤١٨هـ). التربية الإسلامية أصولها وأعلامها تساؤلات في جدلية الإسلام و الحداثة. عمان: دار اليازوري العلمية.
- رضا، محمد(١٩٨٢م). تاريخ الفكر التربوي الإسلامي: مقدمة في أصوله الاجتماعية والعقلانية. القاهرة: دار الفكر العربي.
- الرشidan، عبد الله(٢٠٠٤م). الفكر التربوي الإسلامي. عمان: دار وائل للنشر.
- الزركلي، خير الدين(١٩٨٨م). الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت: دار العلم للملايين.

- أبو زهرة، محمد (د-ت). مالك حياته وعصره آراؤه وفقهه. القاهرة: دار الفكر العربي.
- أبو زهرة، محمد (م ٩٧٨م). الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه. القاهرة: دار الفكر العربي.
- أبو زهرة، محمد (د-ت). أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه وفقهه. القاهرة: دار الفكر العربي.
- أبو زهرة، محمد (د-ت). ابن حنبل حياته وعصره - آراؤه وفقهه. القاهرة: دار الفكر العربي.
- السريتي، عبد الودود (م ٩٩٣م). تاريخ الفقه الإسلامي ونظرياته العامة. بيروت: دار النهضة العربية.
- الشافعي، محمد (١٤٠٩هـ). من أعلام التربية العربية الإسلامية. مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي.
- الشرباصي، رمضان (١٤٠٣هـ). المدخل لدراسة الفقه الإسلامي. مصر: مطبعة الأمانة.
- شلبي، أحمد (م ٩٧٣م). موسوعة النظم والحضارة الإسلامية (تاريخ التربية الإسلامية). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- العساف، صالح (١٤٢١هـ). المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية. الرياض: مكتبة العبيكان.
- علي، سعيد (١٤١٢هـ). اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي. القاهرة: دار الفكر العربي.
- العمارة، محمد (١٤٢٦هـ). أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية. عمان: دار الميسرة للنشر والتوزيع.
- العمارة، محمد (١٤٢١هـ). الفكر التربوي الإسلامي، عمان: دار الميسرة للنشر والتوزيع.

- غاوجي، وهبي (١٤٠٩هـ). من أعلام التربية العربية الإسلامية. الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- الفرور، محمد (١٤١٦هـ). تاريخ الفقه الإسلامي. دمشق: دار ابن كثير - دار الكلم الطيب - دار القادري.
- الفيتوري، شاذلي (١٤٠٩هـ). من أعلام التربية العربية الإسلامية. الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي.
- القطان، مناع (١٤٢٢هـ). الشريعة والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهجاً. القاهرة: مكتبة وهبه.
- الكيلاني، ماجد (١٤٠٧هـ). الفكر التربوي عند ابن تيمية. المدينة المنورة: مكتبة دار التراث.
- الكيلاني، ماجد (١٤٠٩هـ). من أعلام التربية العربية الإسلامية. الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- الماوردي، علي (١٤١١هـ). أدب الدنيا والدين (تحقيق) أبوبكر، محمد. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- الماوردي، علي (٩٧٨م). أدب الدنيا والدين. (تحقيق) السقا، مصطفى. بيروت: دار الكتب العلمية.
- محمصاني، صبحي (٩٧٥م). فلسفة التشريع في الإسلام. بيروت: دار العلم للملايين.
- مرسي، محمد (د-ت). التربية الإسلامية أصولها وتطوها في البلاد العربية. القاهرة: عالم الكتب.
- مرسي، محمد (١٤٢٣هـ). التربية الإسلامية أصولها وتطوها في البلاد العربية. القاهرة: عالم الكتب.
- ابن منظور، جمال الدين (١٤١٢هـ). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- الهماذي، عمار (٢٠١٣م). منهج الفكر التربوي الإسلامي: تأصيلاً لمدرسة الفقه والحديث في القيروان. بحث مقدم إلى ندوة مدرسة القيروان بين الفقه والحديث. مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، جامعة القيروان، ص ص ١٢٣-١٥٩.
- الهندي، جمال (١٤٢٤هـ). الإعداد التربوي للفقهاء عند المسلمين. الرياض: مكتبة الرشد.
- وحدة البحث العلمي (١٤٣٦هـ). المذاهب الفقهية الأربعة. الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.